

# Ibn Al-Jawzi and The Political Preaching



## ابن الجوزي والوعظ السياسي

**أ.د. أحمد علي السري**

أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية  
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية  
جامعة الإمارات- دولة الإمارات العربية المتحدة



### **الاستشهاد المرجعي بالدراسة:**

أحمد علي السري، ابن الجوزي والوعظ السياسي- دورية كان التاريخية- العدد الخامس والعشرون: سبتمبر ٢٠١٤، ص ١٨١ - ١٩٧.

[www.kanhistorique.org](http://www.kanhistorique.org)

كان التاريخية- رقمية الموطن .. عربية الهوية .. عالمية الأذى

## مُلَخَّصٌ

وقد خص ابن الجوزي هذا الخليفة بهذا الكتاب رغم معاصرته لستة من الخلفاء في القرن السادس الهجري هم المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩)، والراشد بالله (٥٢٩ - ٥٣٢)، والمقتفي لأمر الله (٥٣٢ - ٥٥٥)، والمستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦)، والمستضيء بأمر الله (٥٦٦ - ٥٧٥)، ثم أخيراً الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢)، وفي زمنه توفي ابن الجوزي سنة ٥٩٧ هـ ولم يسجل ابن الجوزي لنفسه علاقة وعملاً إلا مع المستنجد بالله وابنه المستضيء بأمر الله الذي كتب له كتاب الوعظ السياسي قيد الدرس. وسر ذلك يكمن في الاستقرار الكبير الذي نعمت به الخلافة العباسية، فالوعظ لا يزدهر ولا يسمع إلا في فترات الهدوء والاستقرار كما استخلصنا ذلك في الأبحاث السابقة.<sup>(٥)</sup>

وقد ظهرت قبل ابن الجوزي كتابات كثيرة في الوعظ والسياسة، وترقى الآثار المتواترة حول القص والتذكير (يقصد الوعظ والاعتبار) إلى زمن النبي محمد (ﷺ) كما أثبت ذلك ابن الجوزي نفسه في كتابه "القصص والمذكرين"،<sup>(٦)</sup> إلا أن آثار الوعظ السياسي التي أمكن تتبعها في المصادر ترقى إلى زمن الخليفة عمر بن الخطاب،<sup>(٧)</sup> باعتباره المرسخ لكيان الدولة الفاعلة في الإسلام ولحصول جملة من المتغيرات الهامة بفعل الفتوح انعكست بآثارها الاقتصادية والاجتماعية على الحياة العامة ومنها ترسخ مفهوم السلطة وتضخم مسؤوليات الخليفة. في إطار هذه المتغيرات تخلقت بواعث الوعظ السياسي أو النصيح المتصل بالأداء السياسي لولاة الأمور.<sup>(٨)</sup>

وقد أخذ الوعظ السياسي بعد ذلك يظهر ويغيب حسب مقتضى الأحوال السياسية، وتم رصد أنه كان يختفي في أزمنة الفتن والحروب ويعود للظهور في أزمنة الاستقرار، وكان هذا هو حال الوعظ السياسي في الخلافة الراشدة وخلافة الأمويين، ثم في العصر الأول للخلافة العباسية.<sup>(٩)</sup> وقد أثبتت روايات الوعظ السياسي المشار إليها في مؤلفات العصر العباسي الثاني التي بدأت في الظهور لتؤسس لنوع من الكتابات عرفت فيما بعد بمسميات مثل كتب "الوعظ والنصيحة" أو "كتب الآداب السلطانية" وكان موضوعها الأساس هو فلسفة الحكم إجمالاً ثم طبيعة العلاقة بين الحاكم والمحكوم وموقع قيمة العدل من تلك العلاقة.

وكأمثلة للأبرز المتواتر من كتابات الفكر السياسي التي سبقت ابن الجوزي نسعي كتابات ابن المقفع المتوفى (١٤٢ هـ) "رسالة في الصحابة"، و"التاج في سيرة أنوشروان"، وكتاب "التاج في أخلاق الملوك" المنسوب للجاحظ المتوفى (٢٥٥ هـ)، وكتاب الوزير السلجوقي نظام الملك المتوفى (٤٨٥ هـ) "سياسة نامة"، وكتاب السياسة لابن سينا المتوفى (٤٢٢ هـ)، وكتب السياسة للفارابي المتوفى (٣٣٩ هـ) والسياسة المدنية وكتاب السعادة والإسعاد في السيرة الإنسانية للعامري المتوفى (٣٨١ هـ)، وكتاب السلطان لابن قتيبة المتوفى (٢٧٦ هـ)، وكتابات الماوردي المتوفى (٤٥٠ هـ)، وهي "نصيحة الملوك"، و"درر السلوك في سياسة الملوك"، و"أدب

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥١٠-٥٩٧ هـ)، من مشاهير علماء القرن السادس الهجري، ولا تزال شهرته ممتدة إلى اليوم، وهي مؤسسة على ما خلف من تراث فكري ضخم في الفقه والتفسير والتاريخ والأدب والوعظ وغيرها من فنون العلم والمعرفة في زمانه. وقد استحق تراثه الفكري الضخم أن يلتفت إليه الدارسون المعاصرون ضمن موضوعات علمية مختلفة، لكن كتاباته في الوعظ السياسي لم تنل بعد ما تستحقه من الدرس والتحليل، وهو ما يستدرکه هذا البحث عوضاً عن المساهمة في إثراء الدراسات المتعلقة بتراث الفكر السياسي الإسلامي. سيتولى هذا البحث تحديد موقع كتابات ابن الجوزي في الوعظ السياسي بين كتاباته الأخرى كما سيتولى رصد أفكاره السياسية وإبراز منهجيته وتحليل رؤاه في إطارها التاريخي السياسي والفكري للخلافة العباسية ومراقبة أثرها السياسي للخروج بخلاصة علمية عن الوعظ السياسي وتقييم أثره المباشر في الأداء السياسي للموعوظ ومقارنة مقولاته بمقولات الوعظ السابقة عليه، لاسيما في العصر العباسي الأول. وظني أن الموضوع يكتسب أهمية خاصة من خلال ما نشهده من استدعاء تراث الفكر السياسي الإسلامي في الجدل المعاصر حول الطموحات السياسية الراهنة والمستقبلية في العالم العربي، ومن ثم يرجى أن يسهم هذا البحث في تصويب تصوراتنا عن مضمون الفكر السياسي في الإسلام وتحديد علاقته من ثم بالطموحات المستقبلية.

## مُقَدِّمَةٌ

ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن (٥١٠-٥٩٧ هـ)، من مشاهير علماء القرن السادس الهجري، ولا تزال شهرته ممتدة إلى اليوم، وهي مؤسسة على ما خلف من تراث فكري ضخم في الفقه والتفسير والتاريخ والأدب والوعظ وغيرها من فنون العلم والمعرفة في زمانه.<sup>(١)</sup> ومن بين كتاباته التي قاربت الأربعمئة كتاب ورسالة،<sup>(٢)</sup> هناك فقط كتابان لابن الجوزي يخوضان في الوعظ السياسي، الأول: الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء،<sup>(٣)</sup> وهو كتاب صغير اشتمل على عشرة أبواب، سبعة منها سنجدتها مكررة في كتابه الثاني، وهو المعتمد في هذا البحث، المسمى "المصباح المضيء في خلافة المستضيء"،<sup>(٤)</sup> مع فارق أساس هو غنى الأبواب المذكورة بمادة وعظية أشمل في كتاب المصباح. ولسنا نعلم بالتحديد متى ألف ابن الجوزي كتابه الصغير هذا "الشفاء"، لكن يرجح أن تأليفه وقع قبل تأليف "المصباح.."، الذي كتبه ابن الجوزي للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله الذي شغل منصب الخلافة في السنوات من (٥٦٦ - ٥٧٥ للهجرة). وقد عاصره ابن الجوزي وأرخ لسنواته وأحداث عصره في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم". وبسبب هذه المعاصرة اهتم ابن الجوزي بكتاب المصباح وبمادته على نحو خاص لأنه، كما تبين مادة الكتاب وبنيتها، أراد أن يكون مرجعاً للخليفة في تطبيقات السياسة الشرعية.

الوزير، أو "قوانين الوزارة وسياسة الملك"، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك والسياسة، وكتاب الحميدي المتوفى ( ٤٨٨ هـ) الذهب المسبوك في وعظ الملوك، "وكتاب المرادي الحضرمي المتوفى (٤٨٩ هـ)" الإشارة في تدبير الإمارة"، وكتاب الغزالي المتوفى (٥٠٥ هـ) "التبر المسبوك في نصيحة الملوك".

ومن الكتابات التي عاصرتها زمنياً لا مكانياً "كتاب الطرطوشي المتوفى في مصر ( ٥٢٠ هـ) "سراج الملوك"، وكتاب الشيزري المتوفى في مصر أيضاً (٥٨٩ هـ) "المنهج المسلوك في سياسة الملوك"<sup>(١٠)</sup> وكلها كتابات تخوض في شؤون الدولة وفي قضايا الظلم والعدل وفي الملك والطاعة وصحة السلطان وإدارة شؤون الدولة. وقد التفت كثير من المهتمين إلى دراسة التراث السياسي ووقفوا منها مواقف مختلفة في الشرق والغرب،<sup>(١١)</sup> ووجدت كتابات الماوردي والغزالي والطرطوشي تحديداً اهتماماً ملحوظاً في الشرق والغرب، وإجمالاً فإن التراث السياسي الإسلامي الذي يظهر تباغاً من خلال اكتشاف مخطوطات جديدة يتم تحقيقها ونشرها أخذ يفرض نفسه على ساحة التدارس المعاصر في إطار فهم التراث وتقييمه وتحديد علاقته بالواقع والمستقبل على المستوى السياسي تحديداً.

ويمكننا باطمئنان تقدير أن ابن الجوزي قد اطلع على قدر من المؤلفات المذكورة وغيرها بحكم استقراره في حضرة العلم والثقافة بغداد وبحكم قربه من زمن تأليفها وقبل أن يضيع منها ما ضاع، ثم بحكم علاقته الوطيدة بمختلف المعارف ولأن معظم مادة كتابه "المصباح" أمكن اقتفاء أثرها في المؤلفات السابقة المتصلة بالوعظ تحديداً،<sup>(١٢)</sup> فقد استعمل منها ما ناسب غرضه وزاد عليها من عنده رؤيته لطبيعة الأداء السياسي المطلوب تحقيقه في زمنه.

### ١) الخلافة العباسية في القرن السادس الهجري

لفهم طبيعة الوعظ السياسي عند ابن الجوزي وتقييمه في المجرى التاريخي لزمنه، يتعين عرض طبيعة القرن السادس الهجري سياسياً، فقد عرف عند جمهرة المؤرخين، مضافاً إليه نصف السابغ الهجري، بأنه "العصر العباسي الأخير"، وهو العصر الممتد بين (٥١٢ إلى ٦٥٦ هـ)، تاريخ سقوط الخلافة العباسية. وقد شهد هذا العصر نهضة للخلافة بين (٥١٢ - ٥٧٥ هـ) ويدخل في هذا العصر حكم الخليفين المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله بسبب محافظتهما على ما تحقق قبلهما من استقلال منتزع من السلاجقة، القوة السياسية الغالبة في هذا القرن،<sup>(١٣)</sup> ثم حصول انتعاشة كبرى أخيرة للخلافة زمن الناصر (٥٧٥ - ٦٢٢)، وتدهورها بعده لتسقط أخيراً تحت ضربات المغول سنة ٦٥٦ هـ.<sup>(١٤)</sup>

وترتبط تسمية هذه الحقبة جوهرياً بتحول وضع مؤسسة الخلافة من الخضوع لهيمنة سلاطين السلاجقة، القوة الإسلامية المهيمنة يومئذ، ومن حال السمع والطاعة ودفح الإتاوات لهم، إلى الفعل السياسي والعسكري الذي انتهى إلى تمكن الخلفاء من حكم معظم العراق حكماً مباشراً مستقلاً لا سلطان عليهم،<sup>(١٥)</sup> بل زادوا على ذلك ففرضوا أنفسهم قوة جديدة في المسرح السياسي دخلت

بقوة في حسابات التغلب والهيمنة للقوى المتصارعة يومئذ.<sup>(١٦)</sup> وقد ساعد على هذه التطورات تناثر الدولة السلجوقية الكبرى بعد وفاة آخر سلاطينها العظام ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ، إلى دول متنافسة متصارعة أتاحت متنفساً سياسياً استغله الطامحون السياسيون هنا وهناك. لكن وضع مؤسسة الخلافة العباسية لم يتغير بمجرد تفتت الدولة السلجوقية الكبرى، إذ ظلت مصائر خلفاء بني العباس حتى أوائل القرن السادس الهجري مرتبطة بدولة السلاجقة المسماة "دولة سلاجقة العراق" التي سيطرت على العراق والري وهمذان وأستمر نفوذها متأرجحاً بين ضعف وقوة من عاصمتها "الري" من (سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م) إلى (سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤ م) وهي السنة التي تمكن فيها الخوارزميون من القضاء عليهم نهائياً.

ويعُدّ الخليفة المسترشد (٥١٢ - ٥٢٩ هـ) صاحب أول محاولة لاسترداد هيبة الخلافة في القرن السادس الهجري إذ خاض معارك ضد السلاجقة وأمراءهم وانتصر في أكثر من موقعة ففرض نفسه على الواقع السياسي شخصية طموحة ومهابة لاسيما وقد قاد المعارك بنفسه، وهو تقليد كان قد ترك منذ زمن.<sup>(١٧)</sup> ومع أن المسترشد سقط صريعاً في النهاية وسط تشابكات المصالح والقوى، إلا أنه أورث فكرة المقاومة والحضور السياسي لابنه الراشد (٥٢٩ - ٥٣٢ هـ) الذي واصل تقليد أبيه في مقاومة النفوذ السلجوقي وإن لم يكن بنفس الصفات القيادية للأب،<sup>(١٨)</sup> فقد أعيته الحيلة وتعددت صروف عصره أكثر فسقط قتيلاً هو الآخر، وتمكن السلاجقة من استرداد نفوذهم مؤقتاً. وقبل أن يسقط الخليفة الراشد قتيلاً كان السلاجقة قد لفقوا له تهمة لإسقاط أهليته للخلافة وعينوا مكانه عمه المقتفي لأمر الله (٥٣٠ - ٥٥٥ هـ) خليفة.<sup>(١٩)</sup>

وقد رضخ المقتفي لظروف عصره وقبل أن يكون في طاعة السلطان السلجوقي الذي قام بنهب دار الخلافة وأخذ ما حوته من مال وخيل وبغال وجوار وغلمان، وخلافه.<sup>(٢٠)</sup> لكن المقتفي أظهر رغم ذلك دراية بموازن القوى القائم في خلافته ومن حوله وتصرف بحكمة ودهاء وكان يقظاً لمسار علاقات القوة المتغير، فبدأ ببناء قوته واسترداد هيبة مؤسسة الخلافة في السنوات الثماني الأخيرة من حكمه وتمكن بسياسات سديدة وهمة عالية من تخلص معظم العراق من حكم السلاجقة وهيمنتهم عليه وعلى الخلافة وحكمه حكماً مستقلاً تماماً،<sup>(٢١)</sup> ولم يتأت هذا لأي من خلفاء بني العباس منذ قرون، وقد ذكر السيوطي نقلاً عن ابن الجوزي "من أيام المقتفي عادت بغداد والعراق إلى يد الخلفاء ولم يبق له منازع، وقبل ذلك من دولة المقتدر إلى وقته كان الحكم للمتغلبين من الملوك وليس للخليفة معهم إلا الاسم".<sup>(٢٢)</sup>

هذا العراق المستقل والمستقر نسبياً حكمه بعدئذ المستنجد بالله ابن المقتفي (٥٥٥-٥٦٦) ثم المستضيء بأمر الله (٥٦٦-٥٧٥) ولد المستنجد بالله، الذي نهد لزمنه بهذا العرض الموجز، ولم تسجل لهذين الخليفين أية أدوار إضافية سوى المحافظة على حكم العراق مستقلاً، وقد أمكنهم ذلك ليس بفضل قدراتهم

الشخصية، فلم يشبها إسلافهما قط في الهمة والطموح، بل بفضل انشغال أمراء السلاجقة بالتنازع فيما بينهم وظهور ما يهدد وجودهم في مشرق السلطنة، وهما القوتان الغورية ثم الخوارزمية التي تمكنت في النهاية من القضاء على السلاجقة وحلت محلهم. لقد ورث المستضيء في المحصلة عراقاً مستقراً ومستقلاً، باستثناء الجزيرة الفراتية أعلى العراق الذي حكم من أتابكيات مختلفة في معظم القرن السادس الهجري.<sup>(٢٢)</sup> فلم يدخل المستضيء في أية مغامرات سياسية تعكر عليه صفو هذا الاستقرار والاستقلال.

## (٢) صلة ابن الجوزي بالخليفة المستضيء

وقبل المضي في استعراض أفكار الوعظ يحسن عرض صلة ابن الجوزي بالخليفة المستضيء وقصر الخلافة، فبيان هذه العلاقة يفيد في فهم موضوعات الوعظ ومآلاته، وفي التمكن لاحقاً من تقديم تقييم شامل لأثر الوعظ على الأداء السياسي للخليفة وأركان حكمه، كما يفيد في تقييم علاقة الواعظ بموضوعات وعظه، إن كان في وضع ومقام كالذي تبوأه ابن الجوزي في زمنه. ويستفاد مما سجله ابن الجوزي في كتاب المنتظم لسنوات حكم الخليفة المستضيء<sup>(٢٤)</sup> أن علاقته بقصر الخلافة وأركان الدولة طيبة للغاية، ومع ذلك فرغم شهرة ابن الجوزي وعلو قدره عند الخليفة وكبار رجال الدولة، إلا أنه لم يذكر قط أنه قابل الخليفة أو سلم عليه أو حادثه في شأن من الشؤون، وكان قطعاً سيسجل لقاء كهذا بالتفصيل لو حصل في سياق تعزيز صورته العلمية ومكانته الاجتماعية من خلال صلته الشخصية بخليفة المسلمين، لاسيما وقد سجل كل شاردة وواردة تعلقت بصلاته بالقصر مثل الأموال والهدايا والثناء والإشراف على المدارس وإطلاق يديه لمجاهبة الروافض الذين جهروا بإساءاتهم للصحابة في زمنه. لقد ذكر بوضوح تفاصيل صلته بقصر الخلافة ولم يكن من بينها لقاء وحيداً شخصياً وجهاً لوجه مع الخليفة حتى وهو يذكر أنه عرض على الخليفة كتاباً ألفه بعد سقوط دولة العبيدين في القاهرة سماه "النصر على مصر" لم يذكر حواراً جرى بينه وبين الخليفة.<sup>(٢٥)</sup> ولذلك علاقة بشخصية الخليفة الميالة للكمون والتواري.

ومن بين ما سجله ابن الجوزي، حضور الخليفة مجالس الوعظ ومنها، مجالس وعظه حين كان يدعى لإلقاء مواعظه في باحة قصر الخلافة (بياب الدار تحت المنطرة)، وقد استدعي غير مرة وجلس تحت الشرفات ليلقي مواعظه أمام الناس الذين سمح لهم بالدخول إلى ساحة القصر، وليتمكن الخليفة وأهل بيته من سماع المواعظ من مكان مستور. وقد ذكر ابن الجوزي تفاصيل كثيرة عن مجالس وعظه وحشود الناس التي تحضر لسماعه وقارن بين مجالسه ومجالس وعظ أخرى لاسيما مجالس أبو الخير القزويني (ت. ٥٩٠هـ)<sup>(٢٦)</sup> الذي يبدو أنه كان منافساً جاداً له فاستحق منه ذكراً. وقد تباهى ابن الجوزي الحنبلي صراحة بالأعداد التي تحضره، وبحضور الخليفة مجالس وعظه ولم يجد حرجاً في ذكر أن الخليفة كان يفضلها على مجالس وعظ القزويني

الشافعي المذهب، وأن أمراء قصر الخلافة من بني العباس كانوا يرأسونه ويخبروه بأنهم يفضلون مجالس وعظه.<sup>(٢٧)</sup>

لم يستنكف ابن الجوزي من هذا الذكر لما فيه من مباحة وخيلاء غير متوقعة من عالم كبير بقامة ابن الجوزي، ولو قد أعرض عن هذا وتركه لغيره لكان ذلك أوفر له وأهيب، لكن من الواضح أن ابن الجوزي أراد تعيين موقعه العلمي في أوساط الحركة العلمية النشطة التي عجز بها القرن السادس الهجري، لاسيما في حاضرة مثل بغداد أوت عشرات المدارس وعرفت كافة الاتجاهات الفكرية والمذهبية التي حفل بها القرن السادس الهجري.<sup>(٢٨)</sup> ولا يتسنى لابن الجوزي تعيين موقعه العلمي إلا من خلال أدوات العصر وهي جمهور الحضور ثم القرب من أولي الأمر وحواشيم والإعلان عن تسلم الهدايا (الخلع) والأموال من الخليفة والأمراء والوزراء في مناسبات مختلفة ومنها تكفل إحدى أميرات القصر بتجهيز ابنته للزواج وإهدائها مالا كثيراً.<sup>(٢٩)</sup> كما لم يستغن ابن الجوزي عن ذكر ما كان يصل إلى سمعه من إطراءات الخليفة له ولقدرته الباهرة على الكلام في الوعظ، وهو ما تواترت به الأخبار وشهد به الرحالة ابن جبير في رحلته بعد حضوره مجالس وعظ لابن الجوزي.<sup>(٣٠)</sup> ونخلص إلى أن صلة ابن الجوزي بالخليفة وأركان دولته وحاشيته الخاصة كانت طيبة، لكن صلته بالخليفة تحديداً كانت غير مباشرة بحكم احتجاب الخليفة عن الناس وطبيعة شخصيته الميالة للدعة والكمون.

## (٣) الوعظ المقدم للخليفة المستضيء

صمم ابن الجوزي كتاب وعظه هذا ليخدم غرضاً واحداً وهو حث الخليفة العباسي على تطبيق "الشريعة" وجوهرها إقامة العدل بمقتضى الشرع الإسلامي، وبسبب ذلك التصميم الذي نراه مقصوداً يحسن أن نستعرض أبوابه العامة لتتضح خطة ابن الجوزي في إنجاز كتاب مرجعي للخليفة يمكنه من العودة إليه حين يحتاج إلى فكرة أو موعظة متعلقة بالأداء السياسي لحكمه. بنية الكتاب فقط هي المختلفة أما مادة الوعظ فمكررة في معظمها وقد عرضت في كتب السابقين وفي كتاب ابن الجوزي الصغير المعنون "الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء". واللافت في بنية كتاب المصباح أن ابن الجوزي جعل لكل باب من أبواب الكتاب السبعة عشر، باستثناء البابين الرابع عشر والخامس عشر، مقدمة قصيرة اشتملت على وعظ عام يقرب من موضوع الباب، كما اشتملت في كل مرة على الصلاة والسلام على النبي محمد (ﷺ) وعلى عمه العباس وعلى الخليفة المستضيء، ولم يرد ذكر الصحابة إلا مرتين، ثم اتبع ذكر الخليفة المستضيء في كل مرة بمدح عال يصف كرمه وجوده وعدله وفضائله، وفي مقدمة الباب الثاني وصف المستضيء بأنه نائب عن الله في الحكم والتدبير،<sup>(٣١)</sup> كما تضمنت المقدمات دعاء متنوعاً للخليفة المستضيء منه أن "يحفظ الله شؤون مملكته من كل شين وعيب"،<sup>(٣٢)</sup> ولم ترد مفردة الدعوة إلى طاعة الخليفة إلا مرة واحدة في مقدمة الباب العاشر،<sup>(٣٣)</sup> وقد وردت هامشية في

سياق الدعاء العام للخليفة، كما لم تتضمن فصول الكتاب أي فصل مستقل يدعو إلى الطاعة أو يحدد واجبات الرعية تجاه الخلافة، بل ركز ابن الجوزي على واجبات الخليفة وأركان دولته تجاه الرعية. وهو موقف يستحق الإبراز هنا.

انتقى ابن الجوزي لمقدماته تلك أسلوب سجع جذاب يهر به القارئ ويظهر مقدرته اللغوية الفارحة. وخلاصة هذه المقدمات: أولاً زيادة تأكيد شرعية الخلافة العباسية وإبراز إعجاب ابن الجوزي المتناهي بكرم الخليفة وجوده، ثم شهادة ابن الجوزي للخليفة ثانياً بالورع والصلاح ونشر العدل.

أما ما يتعلق بمادة الكتاب الأصلية فقد بدأ ابن الجوزي كتابه بعرض طبيعة سلطة الخلافة في الإسلام القائمة على الملك والتوريث، وأثبت شرعية بني العباس للخلافة، وهي الشرعية التي ظلت الخلافة العباسية بحاجة ماسة لتأكيد استمرارها المستمر، ليس لمجابهة التيار العلوي الشعبي وحسب بل أيضاً لمجابهة المتغيرات السياسية وبروز دول مستقلة عن سلطة الخلافة ومنها الدولة الفاطمية/العبيدية في مصر. ثم أبرز ابن الجوزي شرف منصب الخلافة وما يترتب عليه من مسؤوليات جسيمة (الباب الأول) وأهمها واجبات سلطة الخلافة في إقامة العدل وتجنب كل أشكال المظالم، ثم أبرز ابن الجوزي فكرة شائعة عن "سكر السلطة"، كان الغزالي (ت. ٥٠٥هـ) في التبر المسبوك قد أشار إليها، وهي أن السلطة تفعل بصاحبها فعل الخمر في العقل، وعرض ابن الجوزي من خلال أمثلة وأفكار فلسفة الحاجة إلى الوعظ وأبان، وهو ما يستحق الإبراز. أهمية الوعظ والتذكير وحاجة السلطان الماسة إليهما، لإنقاذه من "سكر السلطة" (٣٤) (الأبواب من الثاني إلى الخامس)، ثم عرض من خلال مآثورات متنوعة فضل العدل وذم الظلم (البابان السادس والسابع).

وفي (الأبواب من الثامن إلى العاشر) اتجه إلى الخليفة المستضيء مباشرة يعظه ويبين حقوقه وواجباته تجاه رعيته معززاً مواعظه بالنصوص المختلفة من أحاديث نبوية وأخبار صحابة وتابعين ووعاظ وأتقياء بل وبما تواتر من تراث أمم الفرس والإغريق والهند، حول ضرورات العدل ومنافعه وتجنب الظلم ومصاببه مما درجت عليه كتب الوعظ والنصيحة. وبعد ذلك، ولتدعيم أهمية الوعظ في التذكير بالعدل، تم سرد قصص الوعظ المتصلة بالخلفاء والأمراء وملوك الأمم السالفة، واستعرض مواعظهم بوصفها ثمرة من ثمار تجاربهم في الحكم والسياسة والعلاقة بالدنيا، تعين على الاعتبار والتقوى، وهو ما استغرق باقي أبواب الكتاب من الحادي عشر حتى السابع عشر.

وعلى ضوء هذه البنية المحكمة يمكن استخلاص أن ابن الجوزي صمم كتابه بوعي مدروس يعكس حساسية الوظيفة المراد تأديتها من خلاله، وهو تطبيق الشريعة باعتبارها "السياسة الكافية" كما عرفها ابن الجوزي (٣٥) ولا بد من إضافة فكرة إلى بنية الكتاب، وهي المفردات والمصطلحات الدالة التي استعملت لعنونة

الأبواب أو تكثفت معانيها في المتن، ودلالاتها تكمن في حضور معانيها في الحياة الاجتماعية، وهي الخلافة، الإمامة، الشكر، الاصطفاء لقريش ثم لبني هاشم، التذكير والحاجة إلى التذكير، السلطان والوعظ، النصح وطبائعه وخلقه، الدنيا والآخرة، الهوى وعداوته للفضائل، عاقبة من سمع الوعظ ولم يعمل به، فضل العدل وذم الظلم، السلطان والهوى، السلطان والحلم واليقظة، مسؤولية السلطان، ضرورة الاهتمام بالعلماء، أهمية كتب العلم وسير السلف، نقمة السلطان، أنواع الرعايا، الولاة والرعايا، معاملة العوام ونصح الرعية والإحسان إليهم والعدل فيهم، السلطان وذوو الحاجات، تجنب كشف المعاييب وسترها، العمل بالحدود وقانون الشرع، الولايات وخطرها، الأموال: مواردها وأوجه صرفها، ومنها: المال الصالح ( والتحذير من فتنه المال).

هذه هي الموضوعات الرئيسية التي استغرقت عشرة أبواب وثلاث الكتاب، وباقية قصص ومواعظ رتبت تاريخياً وقيماً، فظهر أولاً الخلفاء الراشدون، ثم خلفاء بني العباس، ثم الولاة والأمراء، ثم سيقت قصص ومواعظ أمم قديمة. وقطعاً فإن كثرة المواعظ المساقاة تشتمل على موضوعات مختلفة لها صلة بالحياة الاجتماعية والسياسية المعاصرة لابن الجوزي، لكننا نريد أن نرى أهمية استثنائية في الذكر الصريح للموضوعات التي أثبتناها، وهي في مجملها تشكل رؤية ابن الجوزي لتحقيق العدل، هدف الوعظ وغايته. إنها تقدم للخليفة، بعد بيان خطر منصبه وعظم مسؤولياته، خطة لممارسة الحكم الرشيد، وأنه يمكن بلوغه لو أراد من خلال حماية نفسه من شر الوقوع في الهوى والظلم ومن خلال صحبته للعلماء والاطلاع على كتب العلم والاستفادة من سير الصالحين، ويحذره أيضاً من مغبة تجاهل العمل بفحوى الموعظة بعد سماعها. وأخطر فصول الوعظ هي قطعاً ما يتعلق بالأموال، من أين تأتي وأين تذهب فمقتل "السياسة الشرعية" في الأعم الأغلب إنما يأتي من جهة العلاقة بالأموال، كما الحال في معظم التظالم القائم بين الناس، فهو يأتي من هناك أيضاً. ولا بد من الإشارة إلى أن اصطلاح "السياسة لشرعية"، الذي صار علماً على ارتباط السياسات بالشرع كما استخدم بعدئذ في عناوين بارزة لابن القيم الجوزية (ت. ٧٥١) وتلميذه ابن تيمية (ت. ٧٢٨)، لم يكن بين اصطلاحات ابن الجوزي، لكننا نثبت هنا بمآلات الوعظ المرتجاة لا بكثافة الاستعمال.

#### (٤) المطالب الأساسية الموجهة للخليفة

رغم أن هدف الكتاب كله، تقديم خطة عمل لتحقيق السياسة الشرعية، إلا أننا فيما يلي سنحاول استعراض تفاصيل الوعظ المقدم مباشرة للخليفة المستضيء، وهي في مجملها تشكل المطالب الأساسية التي يرى ابن الجوزي أن على الخليفة القيام بها لتحقيق السياسة الشرعية، وقد تضمنتها الأبواب من الثامن إلى العاشر.

ذلك بقول منسوب للخليفة عمر بن الخطاب فيه "أيما عامل لي ظلم أحدًا فبلغتني مظلمته فلم أغيرها فأنا ظلمته".

أما الأفكار المتعلقة بعامّة الناس (الشعب) أو العوام بلغة ذلك العصر، فإن ابن الجوزي يرى أن تكون معاملتهم "مزوجة بين التخويف والرفق ويكون الرفق فيها أغلب والحلم فيها أكثر"، ويدعم ذلك بقول منسوب لسلمان الفارسي فيه "إن الخليفة هو الذي يقضي بكتاب الله ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله"، ويعظ ابن الجوزي الخليفة بضرورة خدمة الرعية هو وولاته "وأن يريد لهم ما يريد لنفسه"، ولأنه يعلم مقدار الظلم الذي يقع على الرعية من الولاة فقد دعم فكرة خدمة الرعية بمجموعة من الأقوال المنسوبة للرسول (ﷺ) كلها تؤكد الحرص على خدمة الرعايا وتهم بالغش من لم يفعل وتتوعد نار الجحيم، منها مثلاً: "أيما وال ولي شيئاً من أمر أمتي، فلم ينصح لهم ويجهتد لهم كنصيحته وجهده لنفسه، كبه الله على وجهه يوم القيامة"، أو "أيما راع استرعى رعية فلم يحفظها بالأمانة والنصيحة ضاقت عليه رحمة الله التي وسعت كل شيء"، أو "ما من أمير يلي أمور المسلمين ثم لا يجتهد لهم وينصح، ألا لم يدخل معهم الجنة"، أو "ما من عبد استرعاه الله رعية فيموت يوم يموت وهو لها غاش إلا حرم الله عليه الجنة".

والراجح أن هذه الأحاديث الحاتة على الاهتمام بالرعية تعكس أشواق الرعية إلى العدل كما تشكل جزءاً من الثقافة السياسية المتداولة شعبياً عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم. ثم ينصح الخليفة بضرورة الإحسان إلى الرعايا كافة، أي عدم التفريق بين الحر والعبد والكبير والصغير بالإحسان مرتبة قصوى في الإيمان وهي في السياسة أفضل أشكالها، وتعني النظر بعين واحدة إلى الجميع، ويدعم هذه الفكرة بأقوال منسوبة لمن سبق من الوعاظ مثل ابن السماك<sup>(٤١)</sup> الذي عاصر الرشيد ووعظه، والفيلسوف أرسطاطاليس في نصيحته لأسكندر المقدوني "إنك إنما تملك الأجسام فأحرص على اجتذاب قلوب رعيته بالإحسان إليها". ولا ينسى ابن الجوزي أن يعيد على أسماع الخليفة فكرة مبثوثة في كتب الوعظ السياسي وهي العلاقة الشريفة بين عدل السلطان وخصب الزمان والعكس، "وليعلم السلطان أن نصحه للرعايا وعدله يؤثر في الأرض خصباً، وأن غشه لهم وجوره يؤثر جدباً".<sup>(٤٢)</sup>

ولا تقف هذه الفكرة عند مجرد ظهور العدل أو اختفائه في الواقع بل تتوغل إلى سبر أعماق السلطان ونواياه، فنية السلطان الخيرة تورث خيرًا ونيته الخبيثة تورث جدباً، وهي فكرة مدعومة بحكاية شعبية متواترة أو مستقاة منها تصور كسرى ملك الفرس وقد خرج متنكرًا وسار بين الرعية ثم نزل ضيفًا على امرأة عجوز وابنتها، وكانت لهما بقرة حلوب. رأى الملك المتنكر ابنة العجوز تحلب البقرة ورأى كثرة حلابها ففكر في فرض ضريبة على البقر في رواية، وفي أخرى أنه فكر في أخذ البقرة لنفسه، وحين ذهبت الفتاة بعد فترة لتحلب البقرة ثانية وجدها حائلًا لا لبن فيها، فقالت البنث

عنون ابن الجوزي الباب الثامن وتستغرقه الصفحات من (٢٠٩-٢٢٩)<sup>(٣٦)</sup> بما يلي: "في ذكر ما ينبغي للسلطان استعماله"، وفي هذا الباب يحث ابن الجوزي السلطان على إصلاح النفس من خلال التذكير بحضور الخالق رقيبًا على كل شيء ومن خلال تمثل الدار الآخرة وأن عليه أن يكون قدوة لغيره مستعملًا أقوالاً متواترة تخلقت في مضمار التجربة السياسية ومنها قول قيل معاوية بن أبي سفيان في زمنه: "أنت الزمان فإن صلحت صلح الناس"،<sup>(٣٧)</sup> أو قول: "الرعية تصلح بصلاح الوالي وتفسد بفساده" ويؤيد ذلك بأقوال أفلاطون وسقراط<sup>(٣٨)</sup> ويسرد له، زيادة في توكيد المعنى، قصصًا وحكايات تحثه على الاهتمام بشؤون الحكم وترك الأذائد المقربة لزوال الحكم، ثم ينصحه بكظم الغيظ والسيطرة على نوازع الغضب والتمسك بسجايا الحلم والعفو ويورد له أمثلة من حلم معاوية بن أبي سفيان وصره. ثم يحثه على ملازمة العلماء لاسيما الورعين منهم ويذكره بأقدارهم وأهمية رؤاهم وفوائد مجالستهم ومنها الإخبار عن سير السلف ليتعلم منها كيف يزجر السلطان ذاته وهواه ويراعي نعمة ملكه.

وفي الباب التاسع المعنون "في ذكر سياسة الرعية ومداراتهم"، وتستغرقه الصفحات (٢٣١-٢٥٧)<sup>(٣٩)</sup> يستعرض ابن الجوزي كيفيات سوس الرعية أو كيفيات التعامل معهم، ويقرر أن أعظم واجبات السلطان هي الاهتمام بالرعايا ومتابعة أحوالهم والنظر في صالحهم. قسم ابن الجوزي الرعية في هذا الفصل إلى صنفين الخواص والعوام، أما العوام فهم عامة القوم، أي الشعب بلغة هذا الزمان. وأما الخواص فهم الذين تستعملهم الدولة لتسيير أمورهم وقد سماهم "الأداة والآلة"<sup>(٤٠)</sup> (البيروقراطية والتكنوقراط باصطلاح زماننا) ثم يشرع في تقديم النصح حول كيفية التعامل مع هؤلاء الخواص واختيارهم بوصفهم أركان الدولة أو أرباب الدولة كما يسميهم ابن الجوزي في المنتظم وهم المعينون في مناصب بارزة لتنفيذ السياسات الشرعية. هذه الأفكار تتماثل بالمطلق مع المطالبات السياسية الراهنة لهذا الزمان والتي تتلخص في شعار "وضع الرجل المناسب في المكان المناسب" وبلغة ذلك العصر يورد ابن الجوزي قولاً منسوباً للنبي محمد (ﷺ) فيه "من استعمل عاملاً من المسلمين وهو يعلم أن غيره أفضل منه، أعلم بكتاب الله وسنة نبيه، فقد خان الله ورسوله وجميع المؤمنين". ولم تستنكف كتب الوعظ والنصيحة قط من دعم مقولاتها السياسية بأراء حكماء وفلاسفة من خارج سياق الثقافة الإسلامية فنقلت على لسان الحكماء قولاً فيه "من استعمل صغار الرجال على كبار الأعمال ضيع العمل". ولأن معظم الداء يأتي من تولية الأقارب دون النظر إلى كفاءاتهم فقد حذر ابن الجوزي من ذلك أيضاً مستعيناً بقول منسوب للرسول (ﷺ) فيه "من ولي ذا قرابة محاباة وهو يجد خيرًا منه لم يرح رائحة الجنة". ويحمل ابن الجوزي الخليفة مسؤولية الظلم الواقع على الرعية في حال علمه بالظلم ولم يدفعه ويؤيد

لأمرها بصوت سمعه الملك المنتكر المراقب لما يجري في البيت: أظن الملك قد أضررنا شراً، فالبقرة لا تدر حليباً، فاستغرب الملك قول الفتاة وعدل عن نيته فرض ضريبة أو أخذ البقرة، وحين عادة الفتاة لتحلب البقرة للمرة الثالثة وجدت الحليب وافراً، فعلمت على ذلك بالقول: إن الملك عدل عن رأيه. وقد سمع الملك الضيف المنتكر كل هذا ونوى، كما تصور الرواية، ملازمة العدل ومجافاة كل ظلم.<sup>(٤٣)</sup> هذه واحدة من قصص الوعظ، ومع ما فيها من صنع وتزويق،<sup>(٤٤)</sup> إلا أنها شكلت جزءاً من قناعة مستقرة تعتمد على التخويف الذي يقتضيه الوعظ ويحمل فيه السلطان ليس فقط مسؤولية الظلم المباشر بل ما يترتب على ذلك من جفاف الحليب في ضرع البقرة أو جذب الأرض الذي يصيب عامة الناس.

ويمضي ابن الجوزي في مواعظه حول كيفية التعامل مع العوام فينصح بتسهيل المعاملات وتخصيص أوقات يظهر فيها للناس أو ينبع عنه المتدينين لرفع المظالم، لأن هناك دوماً ما يحول بين العوام وبين تقديم مظالمهم. وكان ابن الجوزي يطالب بما يعبر عنه اليوم "بسياسة الباب المفتوح"، لأن احتجاج السلطان أو ولاته عن ذوي الحاجات يشجع العمال على الظلم لعلمهم بصعوبة الوصول إلى الوالي أو الخليفة لتقديم الشكاوى، وهي فكرة خاض فيها الماوردي<sup>(٤٥)</sup> قبل ابن الجوزي وتأسس قطعاً على الممارسات المشاهدة والمتواترة والطقوس السياسية التي تشكلت في السياق التاريخي فعزلت الحكام عن المحكومين بل وراجت ثقافة سياسية تربط بين الاحتجاج وهيبة السلطان، ولمقاومة هذا الطقس السياسي القادح بقيمة العدل وحاجات الرعية ينصح ابن الجوزي الخليفة وعماله بالظهور لذوي الحاجات ويدعم نصحه هذا بأقوال منسوبة للرسول (ﷺ) منها "يا أيها الناس من ولي منكم عملاً فحجب بابه عن ذي حاجة من المسلمين حجب الله أن يلج إلى باب الجنة". وسنعود لمناقشة هذه الفكرة لاحقاً بالنظر إلى واقع احتجاج الخليفة المستضيء عن عامة الناس وعن ممارسة واجباته أمام الوزراء ورؤساء الدواوين وأهل الحاجات.

وفيما يشير إلى سلوك سياسي قائم هو التجسس، ينصح ابن الجوزي بعدم التجسس على الناس بل التستر على عيوبهم "وينبغي أن لا يكشف ستر مستور بل يجتهد في تغطيته" وعدم الإصغاء إلى الواشين، ولا شك أن ابن الجوزي يقصد هنا التجسس على الناس العاديين لإيذائهم في أرزاقهم، ولم يتطرق إلى نوعين من التجسس استحسنتهما الماوردي قبله، وهما مراقبة الرعية ومراقبة الولاة عليهم وهدف الاثنين ضمان أمن الخلافة ومراقبة العمال كي لا يجوروا على الرعية خدمة للدولة،<sup>(٤٦)</sup> أي أن هذا النوع من التجسس يتطابق مع فكرة المراقبة العامة للأداء بتعبيرات زماننا، لكن ابن الجوزي لم يلتفت إليه بل همته أضرار التجسس التي تحيق بالناس وتتعارض مع صريح القرآن "وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَّ بَعْضُكُم بَعْضًا".

وفيما يخص الحدود يشدد ابن الجوزي على ضرورة إقامة الحدود في حال ثبوت جرم ما يتسوجب إقامة الحد، على أن تطبيق على الكبير والصغير وأن لا تجاز أية شفاعة هدفها تعطيل إقامة الحد. وهو ما يعبر عنه في أيامنا بالوساطات النافذة المعطلة لقيمة العدل. ولدعم هاتين الفكرتين يستشهد بقصة شهيرة متواترة، قصة المرأة المخزومية التي سرقت فأراد أهل المدينة التشفع لها بدفع أسامة بن زيد، بحكم قرابه من الرسول (ﷺ) للحديث معه حولها فغضب الرسول من هذه الشفاعة، ثم خطب في الناس وقال قولته المأثورة التي ما تزال تقتبس إلى اليوم: إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها"، كما يحذر أهل الشفاعة الذين يرومون تعطيل الحد بشفاعاتهم بقول فيه "من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في ملكه". وفي إشارة إلى أن العقوبات كانت تتجاوز المنصوص عليه في الشريعة، يشدد ابن الجوزي على ضرورة إقامة الحدود كما هي دون زيادة أو نقصان، لأن في الزيادة والنقص قبح بتمام الشريعة وكمالها، ويستشهد بمواقف علماء سابقين أبرزهم أبو الوفاء ابن عقيل<sup>(٤٧)</sup> (ت. ٥١٣ هـ) الذي احتج في زمانه على رئيس الشرطة الذي كان "إذا أخذ للصوص طبخهم في القدور"<sup>(٤٨)</sup> وهو فعل شنيع يتجاوز الشريعة والسياسة معاً.

ويبدو أن السياسات المطبقة في حق من يستحق عقوبة ما كانت تنجح غالباً عن الحد الشرعي وتدخل ضمن تقديرات الولاة أو رؤساء الشرط مبررين ذلك أمام المحتجين بضرورات "السياسة" ومقتضياتها، لكن هذا التبرير لم يرق لابن الجوزي كما لم يرقه التفريق بين الشرع والسياسة فأكد أن "الشريعة هي السياسة الكافية فمن أضاف إليها ما نصت عنه فقد تعاطى على الشريعة وأظهر أنها ناقصة تحتاج إلى تمام"<sup>(٤٩)</sup> ولعل ابن الجوزي في تشديده على تطبيق الحدود كما هي وإشارته إلى مواقف ابن عقيل قبله قد كان على وعي بطبيعة الجدل الذي ثار بين العلماء قبله وامتد إلى زمانه حول الصلة بين الشريعة والسياسة، وكيف برز رأي ابن عقيل واشتهر، وهو أن السياسة مكمل للشرع طالما أفضت إلى الإنصاف والعدل وإن لم تتصل بالشريعة بنص: يقول ابن عقيل "السياسة ما كان فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح وأبعد عن الفساد وإن لم يضعه الرسول (ﷺ) ولا نزل به وحى، فإن أردت بقولك إلا ما وافق الشرع أي لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح، وإن أردت لا سياسة إلا ما نطق به الشرع فغلط"<sup>(٥٠)</sup>.

وتأكيداً على دور السياسة والدولة في تحقيق العدل يقول أيضاً: وهو ما أثبتته ابن الجوزي في المنتظم، "إن الإنصاف ليس من اختصاص الشرع بل منوط بقوانين السياسة وآداب الرياسة مما يقتضي إعطاء كل ذي حق حقه"<sup>(٥١)</sup> والواضح أن إشكالية موافقة السياسة للشرع قد دار حوله جدل بين العلماء، وبرز رأي ابن

عقيل بحكم وزنه العلمي الذي يقيم علاقة حميمة بين المصلحة وروح الشرع، ويعطي لقوانين السياسة وأداب الرياسة دورًا في تحقيق روح الشرع لا التعلق الحرفي بلفظه. هذا الرأي يعكس جدلاً شرعيًا متواصلًا إلى اليوم بين المتمسكين بحرفية النص، والمتمسكين بمقاصد الشرع وهي مصلحة المسلمين، فإن تحققت بسبيل غير منصوص عليها، أي بقوانين السياسة وأداب الرياسة كما يقول ابن عقيل فهي من الشرع لأنها توافق مقاصده في تحقيق مصالح المسلمين. أما تجاوز ذلك إلى "طبخ اللصوص في القدور"، مثلاً، ففعل شنيع وإن كان غرضه التأديب لأنه يتجاوز روح الشرع ولفظه معاً، وقد اعترض عليه ابن عقيل نفسه كما مر. ويبدو أن ابن الجوزي لم يستغ هذا التفريق بين السياسة والشرع ولم ير له مبرراً، بل رآه ذريعة لتبرير الظلم باسم السياسة فسدها بالتشديد على التطابق بين السياسة والشرعية وأكد كما مر معنا أن "الشرعية هي السياسة الكافية".

وكانت تلك جملة الأفكار السياسية، أو المطالب الأساسية التي تضمنها الوعظ المباشر لابن الجوزي، ولتركيزها في عناوين مختصرة فقد طالب ابن الجوزي بالحرص على إقامة العدل من خلال مباشرة الأعمال وعدم الاحتجاج عن الناس وتعهدهم الرعية ومصالحهم على أساس أن الخليفة وولاته خداماً للرعية، عليهم واجب الإحسان إلى كافة الرعايا بمقتضيات الشرع، كما اشتمل الوعظ على الدعوة إلى إصلاح جهاز الدولة ووضع الرجل المناسب في المكان المناسب وتحمل مسؤوليات ظلم الولاة، واعتماد الكفاءة لا القرابة في التوظيف، والحرص على اجتلاب الأموال من مصادرها الشرعية وتوزيعها في الأوجه الشرعية أيضاً، ومراقبة تطبيق الشرعية دون زيادات، وإدانة التجسس والتعذيب والنصح بستر العيوب. وقد رفدت هذه الأفكار بالآية الكريمة والحديث الشريف واستوى فيها قول الصحابي والتابعي والفيلسوف كما استوت فيها قصص المسلمين وغيرهم طالما كانت تحمل عبرة وموعظة.

## (5) تقييم وعظ ابن الجوزي في ضوء سيرة المستضيء وزمنه

يلخص ابن الأثير صورة الخليفة المستضيء بقوله، "كان عادلاً حسن السيرة في الرعية كثير البذل للأموال غير مبالغ في أخذ ما جرت العادة بأخذه وكان الناس معه في أمن عام وإحسان شامل وطمأنينة وسكون لم يرو مثله، وكان حليماً، قليل المعاقبة على الذنوب، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، فعاش حميداً ومات سعيداً".<sup>(٥٤)</sup> غير أن هذه الصورة الإجمالية التي يجمع عليها مؤرخو القرن السادس وما بعده ومنهم معاصره ومادحه ابن الجوزي،<sup>(٥٥)</sup> تتشقق عند النظر إلى تفاصيل سنوات حكمه كما رواها ابن الجوزي نفسه كما سنرى. ويبقى كرم الخليفة وإسقاطه للضرائب التعسفية غير الشرعية (المكوس) في رأس الفضائل المنسوبة إليه. وفيما يتعلق بالمكوس فقد سبق ذكر إسقاطها كلها في حياة أبيه المستنجد بالله، وقيل أنه لم يبق منها شيئاً،<sup>(٥٦)</sup> ثم تكرر ذكر إسقاطها ثانية في حياة المستضيء وأنه لم يبق منها شيئاً،<sup>(٥٧)</sup> والواضح أن المكوس، وهي ضرائب غير شرعية جائرة، كانت تشكل عبئاً كبيراً وتصيب أهل العراق جميعاً بالشدة والأذى، وكانت أفضل ما يتقرب به الخليفة لرعيته، وقد زاد الخليفة على إسقاط المكوس كرمًا كبيرًا مع الأعيان وعلية القوم، ولذلك مدحه المؤرخون القدامى، أما المعاصرون فيمرون على زمنه مرور الكرام لانعدام أية أحداث جسام قام بها أو تصدى لها، بل إن أحد أبرز دارسي التاريخ العباسي حكم على زمنه وزمن أبيه من قبل بأنه زمن تدهور للخلافة<sup>(٥٨)</sup> مقارنةً بإنجازات المسترشد والراشد والمقتفي التي انتهت

عقيل بحكم وزنه العلمي الذي يقيم علاقة حميمة بين المصلحة وروح الشرع، ويعطي لقوانين السياسة وأداب الرياسة دورًا في تحقيق روح الشرع لا التعلق الحرفي بلفظه. هذا الرأي يعكس جدلاً شرعيًا متواصلًا إلى اليوم بين المتمسكين بحرفية النص، والمتمسكين بمقاصد الشرع وهي مصلحة المسلمين، فإن تحققت بسبيل غير منصوص عليها، أي بقوانين السياسة وأداب الرياسة كما يقول ابن عقيل فهي من الشرع لأنها توافق مقاصده في تحقيق مصالح المسلمين. أما تجاوز ذلك إلى "طبخ اللصوص في القدور"، مثلاً، ففعل شنيع وإن كان غرضه التأديب لأنه يتجاوز روح الشرع ولفظه معاً، وقد اعترض عليه ابن عقيل نفسه كما مر. ويبدو أن ابن الجوزي لم يستغ هذا التفريق بين السياسة والشرع ولم ير له مبرراً، بل رآه ذريعة لتبرير الظلم باسم السياسة فسدها بالتشديد على التطابق بين السياسة والشرعية وأكد كما مر معنا أن "الشرعية هي السياسة الكافية".

وفي إشارة لشيوع حالات التعذيب غير الشرعية، وهي متصلة أيضاً بفكرة تجاوز الحد الشرعي، ومنها قطع الأنوف والأيدي، يعظ ابن الجوزي بعدم جواز ذلك لأي غرض، ومنها تحصيل الحقوق ويورد قصة وال كتب للخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في تعذيب عمال صدقات لم يسلموا ما عندهم من أموال" فكتب إليه عمر ينهيه عن التعذيب ويقنع بما أقرؤا به من مال أو يستحلفهم بالله تعالى على ما لا يؤدوه "فو الله لأن لقوا الله بخياناتهم أحب من أن ألقاه بدمائهم".

ولأن المال كان وما يزال أشهر أسباب الخلاف وأكثرها نشرًا للظلم، فقد كان أيضاً مادة للوعظ في الباب العاشر الذي تستغرقه الصفحات (٢٥٩ - ٢٧٥)،<sup>(٥٩)</sup> لكن ابن الجوزي، وهو يدرك أحوال عصره وحساسية الموضوع، يتخفف كثيراً هنا من عبء الوعظ المباشر ونقد المخالفات الشرعية إزاء الأموال، وهي الأظهر إطلاقاً في السلوك السياسي لأهل السلطة، وقد كانت مدار الوعظ في الخلافة الأموية والعصر العباسي الأول،<sup>(٦٠)</sup> وبدلاً من النقد المباشر الصريح يقصر ابن الجوزي مواعظه بهذا الصدد على بيان الطرق الشرعية لمأخذ المال وأوجه صرفه الشرعية مستعيناً بما ترسخ من فقه المال الشرعي عند الأقدمين. وبهذا جنب ابن الجوزي نفسه من أي حرج أو مجاهبة مع أحد.

لكن ابن الجوزي، الذي يطنب كثيراً في مدح الخليفة المستضيء، ولا يذكر شيئاً عن مظالم الأموال التي عاصرها في زمنه ورواها بحياد لافت في كتابه المنتظم، يظهر وعيه بخاطر "فتنة المال" ويستعرض مادة وعظية مشهورة تنفخ الدنيا وزينتها الفانية وتذكر الإنسان بقصر الأجل عله يرعوي ويحسن الاستعداد للأخرة بالفضائل ومنها مقاومة فتنة المال، ويؤيد ابن الجوزي كالعادة موعظته الزهيدة بآثار وأحاديث يبرز من خلالها خشية الرسول محمد (ﷺ) على أمته من كثرة النعيم والمال المسببان للتنافس والهلكة. ورغم أن ابن الجوزي عاش حياته ثرياً منعماً، إلا أنه أبرز

إلى انتزاع العراق من أيدي السلاجقة ليحكم باستقلالية من قبل الخلفاء العباسيين، ولم يكن للمستضيء من دور أكثر من الحفاظ على العراق مستقرًا بشكل كبير ومستقلًا كما ورثه من جده المقتفي بأمر الله وأبيه المستنجد بالله، وقد تم له ذلك بفضل اشتعال الخلافات بين أمراء السلاجقة وليس بفضل همته وطموحه.

هذه الأحكام العامة حول زمن الخليفة المستضيء تقوم على أساس وضع الخلافة بين القوى المتصارعة يومئذ كما تقوم على مقارنة ما كان السلاجقة يفرضونه من مال وإتاوات على مؤسسة الخلافة وعلى الناس في العراق جملة، وما أسقطه الخلفاء العباسيون من ضرائب جائرة تحبباً منهم لأهل العراق لضمان دعمهم في مواجهاتهم ضد سلاطين السلاجقة الطامحين لاستعادة سطوتهم على العراق. لكن وعظ ابن الجوزي الذي نريد تقييمه لا يتطرق، كما مر معنا، للسياسات العامة في إطار ما كان يموج من أحداث كبرى، بل يتجه لتقويم السياسات اليومية المتصلة بحياة الناس ومصالحهم، وعليه فسنحاول تتبع أعمال الخليفة ذات الصلة بحوائج الناس وهل قام بأي فعل لإرساء قيمة العدل كما تدركه البداهة العامة وتقتضيه السياسة الشرعية.

وباستعراض سنوات حكم المستضيء في كتب التاريخ ومنها كتاب المنتظم لابن الجوزي لا يمكن تبين ملامح صريحة واضحة تكفي لإصدار حكم له أو عليه، وبللملة شتات المروي عنه في سنوات حكمه يظهر المستضيء شخصية غامضة، أبرز ملامحها أنها خليط من ورع وضعف. لقد بقي الخليفة، بل وقبل أن يصير خليفة، غير تواق للبروز والفعل السياسي وغير حاضر في إدارة شؤون الخلافة، مع ضعف صريح في مواجهة من غلب عليه من أركان دولته، لكنه يصور أيضًا رقيق الطبع ميالا للتدين والورع والتحبب إلى كبار القوم وخاصتهم بالأموال والهدايا، وتبقى أخبار كرمه طاغية على كل صفة أخرى وهو كرم لنا معه وقفة أخرى ستأتي.

وما يدعم هذا التقييم لشخصية الخليفة المستضيء أن فعلاً واحداً بارزاً ذا شأن لم يسند إليه خلال سنوات حكمه التي قاربت عشرين، ولم يرو إلا القليل جداً من الحضور العام للخليفة، وهي في مجملها ليست أفعالاً عينية تمتحن بها شخصية خليفة المسلمين بل تدخلات اضطرارية قام بها لمواجهة حالات حادة من الهيجان الشعبي، أو الاستعداد عسكرياً لمواجهة احتمال عدوان عسكري، وقد حصل هذا مرة واحدة فقط، لمواجهة شائعات هددت سلامة حدود الرقعة العراقية التي يحكمها<sup>(٥٩)</sup>. لقد احتجب الخليفة عن الناس إثر مبايعته بالخلافة، ولم يكن قبل ذلك معروفاً أيضاً. ذكر ابن الجوزي احتجاب الخليفة عن الناس في حوادث سنة ٥٦٦هـ<sup>(٦٠)</sup>. وهي السنة نفسها التي تولى فيها المستضيء مقاليد الخلافة. وقد ساهم هذا الاحتجاب في ترسيخ صورة الكمون والضعف للخليفة لاسيما في السنوات الأربع التي تلت تربيته على عرش الخلافة. وتتعرز هذه الصورة أكثر بسكوت المصادر عن ذكر أية أخبار له قبل توليته

الخلافة مع أنه كان قد بلغ عامه السادس والثلاثين حين تولى الخلافة، وهي سنوات شباب وفتوة وفعل وإمارة. لقد غاب ذكره حتى في مرض أبيه المستنجد بالله وهو المرض الذي شجع اثنين من كبار رجال دولته هما أستاذ الدار عضد الدين ابن رئيس الرؤساء وكبير أمراء الجند قطب الدين قايماز على التآمر على حيات أبيه المستنجد بالله.

ففي مرض المستنجد الأخير، وفي إطار صراعات القصر، تآمر أستاذ الدار وأمر الجند مع طبيبه الخاص، على حياة المستنجد وذلك بمنع الدواء عنه وحمله مريضاً عنوة وإلقائه في الحمام حيث تم إغلاق الباب عليه وتركه يصيح ويستغيث إلى أن مات<sup>(٦١)</sup>. وقد تجاوز ابن الجوزي هذا الخبر المنتشر في المصادر واكتفى بخبر وفاة الخليفة المستنجد دون تفصيل. وذكر ابن الأثير أن أستاذ الدار بعدئذ قام مع أمر الجند قايماز بإحضار أبو محمد الحسن بن المستنجد، ولم يتم ذكر أين كان، لكنهم أحضروه فور موت أبيه، مما يعني أنه كان في بغداد أو في مكان ما من قصور الخليفة، فبايعاه خليفة ولقباه بالمستضيء بأمر الله واشترط عليه المتآمران أن يكون عضد الدين وزيراً وابنه كمال الدين أستاذاً للدار وقطب الدين قايماز أميراً للعسكر، وهي من أرفع المناصب في الخلافة فوافق المستضيء على ذلك<sup>(٦٢)</sup>.

وقد سكتت المصادر أيضاً عن إيضاح موقفه من قتل أبيه واكتفت بلحظات الموت والتولية وقبوله الشروط، ومنها، كما نرجح ولم يذكر ذلك في المصادر صراحة، أن يحتجب وتكون صلته بشؤون الخلافة قائمة من خلال قائد الجند قايماز الذي أظهرته الحوادث المروية عنه أكثر قوة وأمضى نفوذاً من الخليفة، وقد ذكر ابن الجوزي بهذا الصدد "واحتجب الخليفة عن أكثر الناس فلم يركب إلا مع الخدم، ولم يدخل عليه غير قايماز، ثم استأنف ابن الجوزي في المنتظم، وكذلك ابن الأثير في الكامل الحديث عن مجريات الأمور بعد ذلك، وهي مجريات توضح غياب الخليفة عن الفعل السياسي وهيمنة أمر الجند قايماز على القصر وشؤونه.

وكانت أول الحوادث في سني خلافته، قتل وزير الخليفة المستنجد في قصر الخلافة وتقطيع جسده إرباً ورميه في دجله،<sup>(٦٤)</sup> وهو وزير أبيه، غير المشترك في جرم التخلص منه، لكن ذكر أنه كان قد قطع أنف امرأة ويد رجل في جنابة، فسلمه المتآمران ليتخلصوا منه لأهل الرجل والمرأة فعاقبوه بمثل فعله وقتلوه في قصر الخلافة في يوم البيعة. وكلها أحداث تبين قبول الخليفة لما جرى لأنه لم يكن في وضع يمكنه من مقاومة هيمنة أمر الجند قايماز وأعوانه.

الفعل الوحيد البارز للخليفة كان قدرته على التصرف بأموال الخلافة والتكريم بها على عليية القوم، فأحاديث الكرم شائعة لدرجة أن يقال أنه كان كريماً ولم يكن للمال وقع عنده، ولم تذكر إزاء هذا الكرم أية اعتراضات من رجال القصر الأقباء، وهو ما يعني أن صلة الخليفة بأموال الخلافة كانت قائمة، وهو مما لا يتنازل عنه أصلاً بل لأجله. وقد مكنته هذه الأموال من إقامة علاقات طيبة مع

ميدان آخر سياسي يقتضي حضوره. ولقد سجل ابن الجوزي المرات القليلة التي تدخل فيها ولم تجاوز الثلاث حالات، كما سجل الحالات التي ظهر فيها الخليفة للناس وذلك من خلال خروجه من القصر إلى استراحة (كشك) عامة بناها خارج أسوار قصور الخلافة، ولم يزد ابن الجوزي على ذكر أنه كان يخرج إلى الكشك وتذهب العامة لمشاهدته والنظر إليه، ولم يذكر أنه جلس للفصل في قضايا أو التحدث للناس، لقد كانت مجرد نزهة للتخلص من ملل القصر وعزلته.

ثم إن قصة احتجاجه عن الناس في قصر الخلافة وعدم السماح إلا للخاصة من خدمه بالدخول عليه، لم يناقشها المؤرخون القدامى ولا سجلوا لها سبباً أو نقداً، ولعل مرد ذلك هو ضعف مؤسسة الخلافة الطويل، واعتياد الناس احتجاج الخليفة لقلّة ما يستطيع فعله إزاء قوة السلاجقة وهيمنتهم بل واضطهادهم للخلفاء، لكن صورة أخرى جديدة ظهرت للخلفاء في فترة انتعاش الخلافة التي بدأها المسترشد وما كان من فعله وفعل الراشد والمقتفي والمستنجد، وهم سلف المستضيء المشتهرون بالفعل والنشاط والحضور. وفي مقارنة مع سلف المستضيء الفاعل النشط، يصبح احتجاج المستضيء مثار تساؤل عن شخصيته وإمكانياته القيادية كخليفة، لاسيما في ضوء وعظ ابن الجوزي وما ذكره من ضرورات مباشرة الأعمال ومساوئ الاحتجاج. وهو حال لا يمكن معه تصور تطبيق مواعظ ابن الجوزي كما يقتضيه حزم السلطة وعدلها المأمول.

وقد ترسخت تقاليد الاحتجاج الشخصي في التاريخ العباسي تعزيراً للهيبة حتى في فترة انتعاش الخلافة، لكن ثمة حضوراً فاعلاً في السياسة للخليفة لا بد منه وأن احتجب أو حاول أن يحتجب عن العامة في سياق الحياة اليومية. ولعل بعض الاحتجاج مردود لأسباب أمنية أو إلى رغبة الخليفة في تجنب مطالب العامة التي لا تنتهي، فلكل طلب صغر أو كبر، ولاتقاء هذه الطلبات التي قطعاً لا يمكن تلبيتها كلها يتم تصدير قيمة الاحتجاج المعزز للهيبة سبباً، لكن ابن الجوزي في وعظه أبرز للخليفة مساوئ الاحتجاج وكيف يتخذ سبباً للظلم. وقد سجل ابن جبير مشاهد من محاولات الخليفة الناصر، ابن المستضيء، للاحتجاج حتى وهو يتمشى بزوارقه في دجله،<sup>(٧١)</sup> وكان الناصر من أقوى الخلفاء وأدهامهم لهذه الفترة وأكثرهم حضوراً، وهو ما يعني وجود موازنة دقيقة بين الحضور السياسي الفاعل والاحتجاج الحافظ للهيبة. أما احتجاج المستضيء فترافق مع انعدام أخبار له قبل توليه الخلافة وقلة الفعل السياسي أيام خلافته ليظهر الوزراء وكبار قواد الجيش في الصدارة بدلا عنه، وهؤلاء هم "الأداة والآلة"، أو الخواص كما سماهم ابن الجوزي في المصباح وهم من يجب اختيارهم على أسس التقوى والورع، لكنهم كانوا المهيمنون على الخليفة والفاضلون سياساتهم عليه والمستمرون في مظالمهم كما مر معنا مثل قيام وتنامش.

النخب الاجتماعية والفكرية والعلمية ومع عامة الناس بإسقاط الضرائب الجائرة، لكنه لم يتمكن من إزاحة سلطة أمر الجند وهيمنته، وقد ظهر ذلك حين حاول الخليفة استغلال خلافات أركان الدولة في قصره، وعين من بينهم وزيراً كان على خصومة مع قايماز. فاعترض قايماز ذلك وحاصر بعسكره دار الخلافة وأجبر الخليفة على التراجع عن قراره،<sup>(٦٥)</sup> واستسلم لهيمنة قائد الجند وأعوانه وأقربائه من قادة الجند، ولم يتمكن الخليفة من التخلص منه إلا بعد أن استجدت أمور وجرت حوادث تبين مستويات الظلم التي كانت تجري تحت بصر الخليفة وسمعه. وقد بدأت أحداث التخلص من قايماز حين قام في شهر شوال من سنة خمس مائة وسبعين للهجرة، أحد أمراء العسكر اسمه تنامش، وهو صهر قايماز، بإرسال جنود إلى نواحي نهر "الغراف"<sup>(٦٦)</sup> "فنهبوا أهله وبالغوا في أذاهم لدرجة أن بعضهم قتل أو غرق في النهر،<sup>(٦٧)</sup> فجاء منهم جماعة إلى بغداد "واستغاثوا فلم يغاثوا لضعف الخليفة مع قايماز وتنامش، وتحكمهما عليه" كما حكم بذلك ابن الأثير،<sup>(٦٨)</sup> أما ابن الجوزي فاكتفى بسرد الوقائع دون تعليق أو حكم.

وقد تطورت استغاثات المظلومين حين قصدوا جامع القصر واستغاثوا فيه ومنعوا الخطيب وفاتت الصلات أكثر الناس، وعند هذه اللحظة من تطور الهياج الشعبي يذكر ابن الجوزي، أن الخليفة أنكر ما جرى، وهو إنكار لفظي وحسب، لكن قطب الدين (قايماز) وحليفه وقريبه تنامش "لم يحفلا بالإنكار وأصروا على الخلاف"،<sup>(٦٩)</sup> بل "واحتقروه" كما يصف ذلك ابن الأثير.<sup>(٧٠)</sup> هذه الحادثة أظهرت بجلاء ضعف الخليفة في مواجهة أمر الجند الذي أراد بعد شهرين من هذه الحادثة وفي شهر ذي القعدة التخلص من أحد أعوان الخليفة وهو "صاحب المخزن"، إذ استدعاه قايماز إليه فلما لم يجب وهرب منه إلى دار الخليفة، قام قايماز بإحراق دار صاحب المخزن وجمع قواد الجند المتحالفين معه وقصد دار الخليفة، فلما علم الخليفة بذلك ورأى كثرة الجند الزاحف إليه لم يجد سوى الاستنصار بالعامة فاستغاث بهم وأباح من على سطح داره علنا دم وأموال قايماز. تقول الرواية "فصعد إلى سطح داره وظهر للعامة مستغيثاً وأمر خادماً فصاح واستغاث وقال للعامة مال قطب الدين لكم ودمه لي. وهو مشهد للخليفة يدعو للثناء، لكن الناس قصدت دار قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المقام لضيق الشوراع وغلبة العامة، فهرب من داره من باب فتحه في ظهرها لكثرة الخلق على بابها، وخرج من بغداد ونهب داره واخذ منها من الأموال ما لا يحد ولا يحصى فرؤي فيها من التنعم ما ليس لأحد مثله".<sup>(٧١)</sup> ثم هرب قايماز بعد ذلك وفي طريقه إلى الموصل أدركه عطف شديد فمات فتنفس الخليفة الصعداء.

ويمكن تصور أنه يمكن الخليفة من الآن إدارة شؤون الخلافة بمساعدة أعوان له خلص، ولكنه ظل مع ذلك غير ذي حضور إلا في حالات قليلة لحسم أمور أبطالها العامة قبل أن تتطور وتخرج عن السيطرة، وقد ظل محتجباً، غائباً غير حاضر بين العامة أو في أي

حكم المستنجد والمستضيء فقد أدى هذا إلى وفرة في المال تفسر كرم الخلافة الذي ظهر في أيام المستضيء.

ومع ذلك لم يسجل ابن الجوزي نقداً لكرم الخليفة، لاسيما ذلك الكرم الذي يحظى به أناس لم يعملوا ما يستحقوا لأجله كل تلك الأموال المعطاة، ومنهم على سبيل المثال عماد الدين الأصبهاني الكاتب، الذي ذكر في "الخريدة" أنه ألف قصيدة بمناسبة تبوأ المستضيء عرش الخلافة، وأرسل القصيدة مع أحد الفقهاء إلى بغداد فعاد إليه "بخلع سنوية ودنانير أميرية، وصيرها الإمام رسماً في كل سنة".<sup>(٧٦)</sup> لقد أعطى الخليفة أموالاً لمدارس وربط ومؤسسات تقوم بواجبها إزاء الناس وهذه من واجبات الدولة وإن كان بعضها أهلياً. ولعل تمويل هذه المؤسسات كان متعثرًا والأسباب كثيرة ومتصورة، وعطاء الخليفة لهذه المؤسسات أمر محمود قطعاً، لكنه استقبال بوصفه كرماً من الخليفة وليس واجباً قصر عنه سابقوه.

لقد كان أضعف أبواب الوعظ عند ابن القيم هو أبرز ما كان يجب عليه أن يفصل فيه، (المال)، وقد اكتفى بإيضاح مصادر المال الشرعي (المال الصالح) وأوجه صرفه كما أثبتت ذلك كتب الفقه والأموال قبله. وبصفته عالماً شرعياً يعلم أفضل من غيره الأوجه الشرعية لمصادر المال وأوجه صرفه الشرعية، إلا أن ابن القيم لم يقدم نقداً لمصارف الأموال التي نقدها قبله زهاد ووعاظ الرعيل الأول وأبرزهم سفيان الثوري<sup>(٧٧)</sup> (ت. ١٦١) والفضيل بن عياض (ت. ١٨٧هـ/٨٠٣م).<sup>(٧٨)</sup> لقد سجل ابن الجوزي ببعض الزهو، إظهاراً لعلو مرتبته في قصر الخلافة، سجل ما كان يمنح من أموال وهدايا هو وأهل بيته، كما سجل ما أعطي من مال لغيره من متصوفة وشعراء وكتاب دون أن يذكر إن كان هذا المصرف للمال شرعي أم لا. ولن نناقش هنا هذه الفكرة من الوجهة الشرعية، لكن مقارنة موقف ابن الجوزي من "كرم الخليفة" بمواقف من ذكرنا من العلماء الزهاد، يجعل ابن الجوزي مصطفاً مع العلماء المستحلين لأموال الخليفة وهداياهم، وهي مواقف ظهرت أيضاً في زمن الثوري والفضيل بن عياض وفرزت العلماء بين رافض لقبول أموال الخلافة ومستحل.

لقد تباينت المواقف في صدر الإسلام والعصر العباسي الأول من "كرم الخلافة"، إلا أن وضع المصلحة العامة معياراً للحكم مع سندها الشرعي يرجح مواقف الناقدين "لكرم الخلافة"، الذي يرون في التصرف بالأموال العامة هبات وهدايا "سطوا على أموال المسلمين"، وهو ما ذكره الواعظ سفيان الثوري، وكانت أبرز مواظله لبعض خلفاء العصر العباسي الأول ذات علاقة بأموال المسلمين، لكنه وقد أدركه بأس الخضوع لمنطق الوعظ، أثر النفور من الحكام والاختفاء خشيةً أن يستعمل قربه منهم في تسويق مظالم لا يقرها، وحين أتاه كتاب الخليفة الرشيد، وكان قد غادر بغداد متخفياً فعثر عليه في الكوفة، يعاتبه على عدم قدومه للتهنئة بالخلافة مثل باقي المهنيين الذين توافدوا عليه، وذكر أنه "فتح

وهناك عاملان قد يفسرا احتجاب الخليفة، الأول شخصية المستضيء الغامضة التي رجحنا ميلها للدعة والهدوء، والثاني سعة قصر الخلافة الذي كان يشغل مساحة تزيد على ربع مساحة الجانب الشرقي من بغداد، وفيه الجامع والوزارة وملحقاتها والأسواق، إلى جانب الحدائق الواسعة التي تغني ساكن القصر عن الخروج منه إلى غيره. وقد لفت وضع قصر الخلافة ومساحته الكبيرة الرحالة ابن جبير الذي زار بغداد سنة (٥٨٠) هجرية، فخلص إلى أن خلفاء بني العباس "معتقلون في هذا القصر اعتقالاتاً جميلاً"<sup>(٧٩)</sup> وهو يصف سنة (٥٨٠) هجرية أبرز خليفة عباسي في فترة الانتعاش هو الناصر ابن المستضيء سابق الذكر وهو الذي أوصل الخلافة العباسية بهمته ونشاطه ودهائه إلى ذروة قوتها ووسع رقعة حكم الخلافة، فإن كان وصف الاعتقال الجميل ينسحب على سعة القصر ومساحاته فإن معنى احتجاب المستضيء ليس عدم مغادرته القصر بل عدم مباشرته الأعمال الخلاقية المنوطة به كما تقتضي أمور الحكم.

ورغم عزلة الخليفة المستضيء واحتجابه والعالم الإسلامي يضح من حوله بأحداث جسام أبرزها توالي الحروب الصليبية في بلاد الشام، إلا أن أحداثاً أخرى أسعدت الخلافة العباسية وجعلت اسم الخليفة المستضيء يتردد في مساجد مصر وبقاع أخرى إثر تمكن صلاح الدين الأيوبي من إزاحة الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ، وإعادة الخطبة للخلافة العباسية هناك. نقل السيوطي عن الذهبي أنه في أيام المستضيء ضعف الرضا ببغداد ووهي وأمن الناس وورق سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة ومصر إلى أسوان ودانت الملوك بطاعته وذلك سنة سبع وستين وخمسائة.<sup>(٨٠)</sup>

ونلتفت الآن إلى كرم المشهور الخليفة للبحث عن سببه وبواعثه، فقلت واردات الخلافة من المال متزامناً مع كرم في التوزيع يقتضي السؤال. والجواب على هذا يلتمس في الوضع المستقر نسبياً والمستقل للخلافة، فقد اعتاد الخلفاء أن يدفعوا لسلطان السلاجقة أموالاً كثيرة، واعتاد السلاجقة أن يفرضوا ضرائب باهظة غير شرعية (المكوس)، ولقد علم الخلفاء العباسيون في فترة النفوذ السلجوقي بحال أهل بغداد على الأقل بحكم المعاشية المباشرة فتولوا عنهم في أوقات الشدة دفع ما لم يستطيعوه وجنبوهم مشقة الدفع حتى ثقل الأمر على الخلفاء أنفسهم فرفضوا دفع ما يطلب منهم لعجزهم عن الدفع إلا أن يبيعوا دورهم للوفاء بما عليهم.<sup>(٨١)</sup> وقد أدت هذه السياسات إلى تقريب الخلفاء لأهل العراق وأهل بغداد خصوصاً، فلما تغيرت موازين القوى وتمكن الخلفاء من بناء جيش خاص بهم كانت علاقتهم الطيبة بالناس أحد الأسس الجديدة لقوتهم فحافظوا عليها، ولأنهم توقفوا عن دفع الأموال الباهظة للسلاجقة فقد يفسر هذا كفاية الضرائب الشرعية المحصلة كي تقيم شؤون الخلافة، ولأن الحروب توقفت في فترتي

الخلافة وكرمها كانت قد ابتعدت كثيرًا عن مواقف وعاظ صدر الإسلام والعصر العباسي الأول، فلم تحفل بما سبق من وعظ يرى كرم الخلافة في غير الأوجه الشرعية، "سطوا على أموال المسلمين".

ويعَدّ ابن الجوزي بعلمه ومكانته أبرز مثال على تطور الموقف من الخلافة وأموالها واعتبار كرم الخليفة مستساغًا شرعًا بحكم ترسخ الوعي السياسي بملكية الحكم والمال المحصل، وهو السلوك الظاهر البارز الذي دأب عليه المتغلبون، فصيره قاعدة واقعية لمعنى الملك والحكم فتراجعت وتوارت عظات الورع المالي وألف الناس عامتهم وخاصتهم فكرة الكرم والإحسان وقبلوها بوصفها ملمحًا تقنيًا من ملامح الأداء السياسي. لكن ابن الجوزي وإن لم ينكر قبول مال الخلافة، وإن لم يشجب توزيع الأموال التي سجل حالاتها في المنتظم فإنه يصلح مثالاً على فئة من العلماء تقبل القرب من السلطة وأموالها مع حرص على عدم المداهنة بالدين، ففي وصيته لابنه يفخر ابن الجوزي باعتداده بنفسه وتزيمها عن المداهنة ويقول "واعلم يا بني أن أبوك ما ذل في طلب العلم قط، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعاظ، ولا بعث رقعة إلى أحد يطلب منه شيئًا قط، وأموره تجري على السداد"،<sup>(٨٤)</sup> وبسبب هذا وما ترك له والده من مال جعلته تمكن ابن الجوزي من الحفاظ على هيبته وهيبته العلم معًا.

### تقييم ختامي

يفري السياق التاريخي المتصل بهذه المواعظ السياسية بتقديم تقييم عام لمستويات تطبيقها في الواقع وعلاقة ابن الجوزي بمواعظه، وأية ذلك أن ابن الجوزي الذي ألف كتاب الوعظ "المصباح"، كان قريبًا من القصر وأرباب الدولة وعاصر أحداث الخليفة المستضيء وسجلها في كتاب المنتظم باستثناء السنة الأخيرة من حكم المستضيء فقد وقف الكتاب عند سنة (٥٧٤هـ). والغرض من دمج موضوع الوعظ السياسي وصلته الواعظ بوعظه هو تقييم قيمة الوعظ السياسي نفسه بوصفه الشكل السلمي الوحيد المتاح للتقويم السياسي. ولأن الوعظ السياسي يقدم في الغالب من فقهاء وزهاد وأهل علم شرعي، فإن معاصرة ابن الجوزي للخليفة الذي وعظ واستمرار صلته به وبقصر الخلافة عمومًا تمكن من متابعة مواقف الواعظ لوعظه للخلوص إلى تقييم عام للوعظ وأثره في القرن السادس الهجري ومقارنته ذلك بما سبق من وعظ سياسي في العصور السابقة.

لقد كالم ابن الجوزي المدائح الطائفة المرصعة بالسجع والمنمقة بجيد الكلام في مفتتح الأبواب وبعض الفصول في كتاب المصباح؟ وهو مدح غاب في المنتظم في سنوات حكم المستضيء، واكتفى بسرد الحوادث بحياد وذكر الاحتجاج دون ذكر سبب لذلك أو تسجيل نقد ولو خفي أو غير مباشر، كما لم يقدم نقداً لهيمنة الوزراء وأمراء الجند على مقاليد الأمور، ولم يشهد على الخليفة

بيوت الأموال وأعطاهم من المواهب السنوية ما فرحت به نفسه وقرت به عينه"،<sup>(٨٥)</sup> فكان جواب سفيان على هذا "قد جعلتني شاهداً بإقرارك على نفسك في كتابك، بما هجمت على أموال المسلمين فأنفقته في غير حقه، وأنفذته بغير حكمه، ولم ترض بما فعلت وأنت ناء عني، حتى كتبت إلي تشهدني على نفسك.... هل رضي بفعلك المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله والمجاهدون في سبيل الله وابن السبيل، أم رضي بذلك حملة القرآن وأهل العلم يعني العاملين. أم رضي بفعلك الأيتام والأرامل.. فشد يا هارون مئزرك، وأعد للمسألة جواباً وللبلاء جليبا".<sup>(٨٥)</sup>

وسواء كانت هذه كلمات الثوري بنصها، أم صيغت باسمه على هذا النحو، فهي على كل حال تبين ثقافة نقد سياسية شاعت إزاء التصرف غير المسئول بأموال المسلمين، وفي النص السابق تشديد على ضرورة المشاورة قبل صرف الأموال، وهو ما يعني أن النص يضم اقتراحًا بتشكيل هيئة تجمع أهل المصلحة وأهل العلم تتولى الإشراف على أوجه إنفاق الأموال بدل أن يستأثر بها الخليفة وحده ويقرر ما يشاء. وهناك روايات لمواقف مشابهة وقفها الفضيل بن عياض حين رفض تسلم نصيب من المال الذي وزعه الرشيد على جمع العلماء بحضرته، ففي حين قبل كل عالم عطية الرشيد رأى الفضيل أن هذا المال لا يحل له، وأنها أموال يصرفها الخليفة في غير وجهها، وحين حاول عالم آخر مشهور هو سفيان بن عيينة<sup>(٨٦)</sup> (ت. ١٩٧هـ/٨١٢م) إقناع الفضيل بأخذ المال وصرفه في أوجه البر التي يراها، التفت الفضيل إليه معاتبًا بالقول "أنت فقيه البلد والمنظور إليه، وتغلط مثل هذا الغلط، لو طابت لأولئك لطابت لي".<sup>(٨٦)</sup> مثل سفيان الثوري والفضيل بن عياض من العلماء الزهاد النافرين من قرب السلطان كانوا يرون التقرب من السلطان مداهنة بالدين وتشجيعًا للسلطان على الغي والفساد، ويشكل رفض سفيان الثوري ثم الفضيل للمال في هذا المجلس وعلى هذا النحو إدانة لمواقف العلماء المستحلين لأموال يراها الفضيل غير طيبة المصدر.

وقد كان ابن الجوزي على علم بهذه المواقف وسجلها في أحد كتبه مادحا الفضيل بن عياض لبيان أن العلاقة بالسلطان وأمواله يورثان نفاقًا: "كنتم معشر العلماء سرح البلاد يستضاء بكم، فصرتم ظلمة، وكنتم نجومًا مهتدي بكم فصرتم حيرة، ثم لا يستحي أحدكم أن يأخذ مال هؤلاء الظلمة، ثم يسند ظهره يقول: حدثنا فلان عن فلان".<sup>(٨٧)</sup> ورغم ذلك فقد انتهى ابن الجوزي إلى فئة العلماء الذين يرون القرب من السلطان ولا يجدون حرجًا في قبول أموال منه وهدايا، لكن يلزم الاستدراك بأن ابن الجوزي لم يذكر لنفسه صلة بأي من الخلفاء الستة الذين عاصروهم باستثناء المستنجد وابنه المستضيء وكلاهما استعان به في الوعظ ومقاومة أراجيف الشيعة وسجل شاكراً هباتهم وهداياهم. والواضح أن مواقف علماء القرن السادس من أعطيات

بالضعف إزاء أمر الجند قيمار وأعوانه كما فعل ابن الأثير في الكامل صراحة.

فلماذا كمال ابن الجوزي مدائح طائفة منمقة لعدل الخليفة وكرمه وأيامه المشرقة ونحن مع خليفة لم يظهر له فعل سياسي نشط لا في الأمور السياسية الكبرى ولا الصغرى ولا في القضايا الاجتماعية الشاغلة للناس أو المستجدة جراء الكوارث الطبيعية المتكررة مثل الحرائق والفيضانات التي أفقرت الناس ورفعت الأسعار، وقد كانت هذه الكوارث مما يجب على السلطان مواجهته وتخفيف العبء على الرعية، بحكم البدهة أولاً ثم للنص صراحة على ذلك الواجب كما فعل الإمام الغزالي في مواعظه من قبل "يجب على السلطان أنه متى وقعت رعيته في ضائقة أو حصلوا في شدة وفاقه أن يعينهم، لاسيما في أوقات القحط وغلاء الأسعار".<sup>(٨٥)</sup> لتقديم إجابة مقنعة على هذا السؤال نستعين بما أثبتته محققة كتاب المصباح في مقدمتها العلمية الرصينة. في هذه المقدمة ناقشت المحققة زمن تأليف كتاب "المصباح"، ورجحت أنه كتب في السنة التي تولى فيها الخليفة المستضيء مقاليد الخلافة، وفيما كتبه ابن الجوزي من دعاء بالتوفيق والعون للمستضيء في المصباح في سياق استعراض خلفاء بني العباس ما يؤكد أن الكتاب كتب في السنة الأولى لخلافة المستضيء.<sup>(٨٦)</sup> ولتحديد زمن تأليف الكتاب أهمية في الحكم على أثره وعلى صورة الخليفة المستضيء فيه، ليس فقط من خلال كتاب المصباح، بل من خلال ما دونه ابن الجوزي نفسه في "المنتظم"، لسنوات حكم المستضيء.

وبما أن المنتظم سجل للخليفة المحتجب عن الناس اهتمامه بمجالس الوعظ، وتخفيف الضرائب وتوزيع الأموال على كبار رجال الدولة وأهل العلم، وتدخله في حالات قليلة لم تتجاوز الحالات الثلاث من الأمور غير الجسيمة، إلا أن هذه الأمور لا تغير من الصورة الإجمالية للخليفة التي رصدناها والمتصفة بالغموض والكُمون والاحتجاب وعدم مباشرة الأعمال بنفسه. وهكذا يكون مرد المديح الذي كاله ابن الجوزي هو أولاً صلة ابن الجوزي الطيبة بوالد المستضيء الخليفة المستنجد بالله، ثم استبشار ابن الجوزي بعهد الخليفة المستضيء الذي بدأ عهده بالكرم المالي وإسقاط المكوس. ومع أن الخليفة في سنواته الأربع الأولى بقي واقفاً تحت تأثير أمر الجند وأعوانه، إلا أن ابن الجوزي لم يكن فظاً حتى في تسجيل هيمنة قائد الجند وخضوع الخليفة له واكتفى بتسجيل للمجريات بحياد ودون حكم، ولعل ذلك عائد إلى استمرار الصلة الطيبة بقصر الخلافة وأركان دولته ثم إلى معاصرة ابن الجوزي للحوادث وقناعتة بورع الخليفة وتدينه من خلال حضور ولو بعض مجالس وعظه فحاول أن يجد العذر لعجزه واحتجابه، لكن الخليفة يبقى وبمنطق الوعظ الذي قدمه ابن الجوزي، شريكاً في المظالم التي وقعت في جهازه الإداري (الأداة والآلة)، لاسيما ولم يؤثر له إصلاح إداري ما لضمان تطبيق السياسات الشرعية التي بينها ابن الجوزي له.

وعند مقابلة المطالب التي سجلها ابن الجوزي في كتابه مع السيرة السياسية للخليفة كما رصدها ابن الجوزي نفسه، نخلص إلى أن وعظ ابن الجوزي لم يكن له أثر في سلوك الخليفة وأركان حكمه، وكان لاحتجاب الخليفة وكُمون شخصيته أثر في بقاء الوعظ السياسي مجرد قول تقي يشير إلى صراط السياسة الشرعية المستقيم وحسب. لقد اكتفى الوعظ السياسي كما تواتر إلى زمن ابن الجوزي برسم صورة العدل واشترط تقوى أعوان الخليفة دون أن يجاوز ذلك إلى اقتراح ما نسميه اليوم "أجهزة رقابية"، أو محاسبية مستقلة لكشف وإشهار حالات الظلم كوسيلة لرفعها بعدئذ من أهل العزم والسلطان. لقد نشأت الأجهزة المختلفة في الدولة من شرط وقضاء ودواوين وحسبة تحت ضغط الحاجة المجتمعية، ولم يكن للوعظ والوعاظ في نشأتها نصيب، بل في التذكير بواجبات العدل لتعمل هذه الأجهزة تحت سمع الخليفة وبصره بالصورة المثلى، لكن هذه الأجهزة نفسها تحولت مع الوقت في الأعم الأغلب إلى عبء على الناس وترسخت للدولة في الأذهان صورة واقعية قوامها الغلبة والجباية للأموال.

وفيما يخص علاقة ابن الجوزي بمواعظه، فليس هناك في حياة ابن الجوزي ما يشير إلى أنه قد دأب على مراقبة أثر الوعظ السياسي في سلوك أرباب الدولة، ولم يظهر أنه تدخل في أي من القضايا التي رصدها، رغم وضوح بعدها عن المثال السياسي الذي صورته في كتاب المصباح، لاسيما هيمنة أمر الجند وأعوانه وظلمهم واستباحتهم المرصودة لأموال الناس. هناك حادثة واحدة يتيمة يظهر فيها ابن الجوزي متدخلا برقة ورفق لإنصاف رجل من ظلم الخليفة المستضيء نفسه. تتعلق هذه الحادثة بغضب الخليفة على رجل من حاشيته فهرب الرجل، ولما لم يدركه الخليفة أمر باعتقال أخيه وأخذ ماله، فرجع الرجل مظلمته لابن الجوزي. وفي مجلس الوعظ القادم بحضور الخليفة من وراء الستر كالعادة، قام الرجل المظلوم وذكر ابن الجوزي بمظلمته فأنشد ابن الجوزي شعرا فيه أن البريء لا يؤاخذ بظلم المذنب وأنه لا بد من إعادة المال المصادر، ففهم الخليفة وأعاد المال.<sup>(٨٧)</sup>

وفي القصة ما يؤكد أن الوعظ يبقى مجرد قول تقي يرافق مألوف التدافع البشري، ولا يُعدّ هذا الاستثناء هنا إلا مؤكداً للقاعدة، لكنه أيضاً يظهر أن ابن الجوزي وإن برفق وبصورة غير مباشرة، قبل أن يبين للخليفة أنه يظلم رجلاً بجريرة أخيه وأن عليه تصويب هذا الخطأ. وقد وقع هذا التدخل من ابن الجوزي بحكم التجاء المظلوم إليه، لكنه، رغم قربه من الخلافة وصلته المستمرة بالقصر وأركان الدولة، لم يظهر متدخلاً في يوميات السياسة ولا رقيباً على تطبيق ما قدم من وعظ. لقد استمر في الوعظ العام المخوف من الآخرة والمذكر بجميل الفعال ومآله، ولم تظهر له أية وثبات عملية لوقف المفاصد التي جرت في زمنه. ثم إن ابن الجوزي لم يشر في كتاب المنتظم إلى شيء مما ذكره في "المصباح"، حتى ليبدو "المصباح" مجرد تأليف في الوعظ وحسب،

وهو تأليف اعتاده ابن الجوزي في فنون شتى. وهكذا نخلص إلى أن كتاب المصباح وما فيه من وعظ سياسي بقي مجرد عمل علمي ثم نسي وأهمل من كاتبه والمكتوب له، وسارت الحياة السياسية بما ألفت من تدافع يختلط فيه الفجور بالتقوى، ولم يتحول لا الوعظ السياسي ولا الوعظ العام إلا ما نسميه اليوم "حركة اجتماعية"، رغم كثرة الحركات الاجتماعية والفكرية التي ظهرت في القرن السادس أو استمرت فيه مثل حركة العيارين والشطار، والمتصوفة والزهاد فقد كانت لهم هياكلهم وهيئاتهم وأفعالهم ولم يكن للوعظ السياسي مثل هذا الحظ ليتحول إلى قوة اجتماعية تتجاوز رقة القول والتذكير إلى فرض رؤية وإنفاذها.

ويبقى ابن الجوزي، منظورًا إليه في سياق زمنه وصبغته السياسية وخصائصه الفكرية، نصيرًا للسياسة الشرعية ومن خلالها نصيرًا للعامة من الناس، فهو وإن أطنب في مدح الخليفة فقد سأله أن يكون خادماً للرعية رقيقاً بهم، وهو وإن حسنت صلته بالخلافة وأرباب الدولة، وإن غيب النقد الصريح المباشر لمفاسد السياسة ومظالم أمراء الجند، فقد نقدتها بطريق غير مباشر بتبيينه لمسار الشرع القويم في الأمور المشاهدة في عصره، كما أنه ركز على حقوق العامة ولم يتحدث عن واجباتهم تجاه الدولة، ولم يحفل قط بموضوع الطاعة التي اهتم بها غيره ممن كتب في الفكر السياسي وتم تجديدها كما يذهب إلى ذلك دارس معاصر،<sup>(٨٨)</sup> باعتبارها جزءاً من العقيدة السياسية لأهل السنة والجماعة كما يرى دارس آخر.<sup>(٨٩)</sup>

وابن الجوزي بتركيزه على واجبات الخليفة ورجال دولته على خدمة الخليفة وإهماله أية مطالبات إزاء الرعية يكسر الفكرة التي سجلها بشكل مطلق أحد الدارسين المعاصرين وزعم فيها أن الطاعة تحضر في مصنفات الفكر السياسي "كغاية أولى وأخيرة لاستمرار الملك واستمرار هيئته وعظمتها"،<sup>(٩٠)</sup> وهذه الفكرة لا تنكسر هنا فقط لغياب مطلب الطاعة عند ابن الجوزي، بل لتجاوز الصدارة المعقودة لقيمة العدل والتكبر على خصائص الزمن التاريخية وشح الاعتراف بروح المسؤولية التي أبدتها علماء الإسلام إزاء أرواح المسلمين وممتلكاتهم وهم يستعرضون التجربة التاريخية المشبعة بالحروب والخراب وسفك الدماء، لكن فكرة "الطاعة" والتحذير من العصيان، لم تعدم تكريمًا من دارس غربي حاول تفهم حيثيات النصح بالصبر والطاعة رغم جور الحكم وظلمه، وعرض مبرر الدعوة إلى الطاعة كما أبداه بعض عقول الفكر السياسي، وهو الخوف من الفتنة والفساد واضطراب الأحوال الداخلية، وذلك في سياق شرحه للمقولة الشائعة "سلطان غشوم خير من فتنة تدوم".<sup>(٩١)</sup> ولأن الفكر السياسي الإسلامي، وهو يدرك أن لا سلطة له إلا سلطة الغيب الناعمة، لم يجد بدءًا، وقد تتابعت مآسي الاقتتال، من النصح بالطاعة والصبر إيثارا للسلامة والاستقرار. ورغم أن مآل النصح بالصبر هو إخضاع المجتمع للحاكم، إلا أن سلوك هذا الحاكم ظل على الدوام معروضاً أمام

قيمة العدل المركزية، ولم يمنح ظلمه تركية قط، وشاعت عبارة أخرى شكلت مبدءاً من مبادئ التعامل مع الحاكم وهي " أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق"، وقد كثرت الدراسات المتعلقة بالطاعة في السياقات المعاصرة و لم يُعدّ ممكناً الركون إليها للضبط الاجتماعي إلا في سياق العدل وصراف الشرع المستقيم. لقد كان العدل هو هدف ابن الجوزي وغايته لا الطاعة، وقد صمم كتابه لينتصر للشرع وليبين أن الخليفة وأركان دولته في خدمة العامة وأن عاقبة تقصيرهم في ذلك وخيمة في الآخرة، ولدعم هذه الفكرة الأصل أكثر ابن الجوزي من الأمثلة والقصص والآثار المخوفة والمصورة لسوء المصير ليحمل الخليفة وأركان دولته على اتباع السياسة الشرعية، ولم ترد مفردة الطاعة عند ابن الجوزي سوى مرة واحدة في معرض دعوة عامة هامشية، ولم يفردها لها فصلاً مستقلاً لمطالبة العامة بالطاعة، وهو ما يعزز من تشييعه للعامة والشرع القويم وذلك من خلال ما أجاده ابن الجوزي وصنع حياته وهو العلم والوعظ.

لم يكن ابن الجوزي شخصية (ثورية معارضة) كما كان سفيان الثوري أو الحسن البصري أو أبو حنيفة أو أيًا من علماء القرون الثلاثة الأولى الذين امتحنوا وعذبوا وقتلوا بسبب معارضاتهم للحكام، واستوعبهم كتاب المحن لأبي يعرب التميمي. إن ابن الجوزي وإن كتب في الوعظ السياسي إلا أنه لم يكن همه ولا ديدنه كما هو الحال بالنسبة للماوردي في موقعه السياسي وتجربته وطاقاته الفكرية المميزة، كما لم يشبهه الفقيه الطرطوشي، صاحب كتاب "سراج الملوك" في جرأته ومواجهته الملك الأفضل كبير وزراء الفاطميين الظالم وتحمل تبعات ذلك من هجر وعزل،<sup>(٩٢)</sup> ولا ظهر في كتابه ذلك البرم الواضح الذي أظهره الغزالي في مواقع متناثرة من كتاباته بسبب طغيان الظلم في المعاملات، وأبرز بدلاً عن ذلك، للمقارنة والعظة، عدل كسرى أنوشروان الذي عاش وحكم قبل الإسلام.<sup>(٩٣)</sup> لكن ابن الجوزي، ورغم كثرة جمهور وعظه وحديثه عن مئات التائبين بين يديه بسبب الوعظ، ترم من زمانه كله مجسداً في مجتمع بغداد الهجين، ووجه جل لومه للناس وسلوكياتهم، علماء وعامة رجالاً ونساء، وتمتلى كتبه بإشارات الضيق وانكسار النفس من سيادة الهوى والأطماع وقلة الانصياع لموجبات الفضل والخيرية.

لقد كان ابن الجوزي عالماً شرعياً في المقام الأول ديدنه العلم والعلم فقط، لم يتقلد منصباً حكومياً بارزاً، لكنه قام بمهام وعظية تتناسب مع شخصيته العلمية المحضة. وربما كان لقربه الدائم من الخليفة ما يمل عليه واجب التذكير الدائم بوعظه السياسي ومراقبة أثره، لكنه قطعاً علم مواقع القوة والوهن في قصر الخلافة وعلم نفور السلطان من التفرغ الدائم والتذكير الناقد للأداء السياسي، فاكتفى بالوعظ العام وترك الأمور سياسياً تتابع سيرتها المألوفة.

## الهوامش:

- (١٣) شبارو، عصام محمد: تاريخ المشرق العربي الإسلامي منذ دخول السلاجقة بغداد حتى دخول العثمانيين القاهرة (٤٤٧ - ٩٢٣ / ١٠٥٥ - ١٥١٧)، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٩.
- (١٤) الجومرد، عبد الجبار: في تاريخ الدولة العربية الإسلامية في العصر الإسلامي، من ص ٢٧٧ - ٣٦٨ مديرية دار الكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨. ص ٢٧٧ - ٣٠٣. فوزي، فاروق عمر: الخلافة العباسية، ج ٢، دار الشروق للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٣. ص ١٧٩ وما بعدها.
- (١٥) للمزيد عن طبيعة العلاقة بين الخلافة العباسية بسلاطين السلاجقة، انظر الجالودي، عليان: تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي، (٤٤٧ - ٥٩٠ / ١٠٥٥ - ١١٩٣)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٦.
- (١٦) يسجل المؤرخون القدامى هذه التطورات بوضوح، انظر المؤرخ المعاصر للحدث، ابن العمراني، محمد بن علي: (ت. ٥٨٠)، الإنشاء في تاريخ الخلفاء، دار الآفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩. ص ٢١٠ - ٢٢٥. في هذه الصفحات يرصد ابن العمراني سير الخلفاء العباسيين من المسترشد بالله وانتهاء بالمقتفي لأمر الله. وانظر أيضاً ابن الجوزي عبد الرحمن: المنتظم في تواريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢، السنوات ذات الصلة من ٥١٢ - ٥٧٤. وانظر السيوطي، جلال الدين: تاريخ الخلفاء، المكتبة العصرية، لبنان، ١٩٩٥، ص ٤٨٢ - ٥٠٩. وقد التفت الدارسون المعاصرون لهذه الفترة ومنهم، الجالودي في كتابه السالف الذكر: تطور السلطنة وعلاقتها بالخلافة خلال العصر السلجوقي.
- (١٧) الإنشاء في تاريخ الخلفاء، ص ٢١٠ - ٢٢١.
- (١٨) الإنشاء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٢ - ٢٢٤، وفوزي، تاريخ الخلافة العباسية، ص ١٨١
- (١٩) المنتظم، ٣١٢/١٧
- (٢٠) المنتظم، ٣١٤/١٧. تاريخ الخلفاء، ص ٤٨٨.
- (٢١) الإنشاء في تاريخ الخلفاء، ص ٢٢٥ - ٢٢٦. البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، شركة طبع الكتب العربية، مصر، ١٩٠٠. ص ٢١٤ - ٢١٥
- (٢٢) تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٢.
- (٢٣) محمد، سوادى عبده: الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩، ص ٤٥ - ٥٢.
- (٢٤) المنتظم، السنوات من ٥٦٦ إلى ٥٤٧. لم يسجل ابن الجوزي السنة الأخيرة من حياة الخليفة وهي سنة ٥٧٥ هـ، فقد وقف كتابه المنتظم عند هذه السنة.
- (٢٥) المنتظم، ص ١٩٦.
- (٢٦) لمعرفة علم ومكانة أبي الخير القزويني، انظر، السبكي، أبو نصر عبد الوهاب بن علي: طبقات الشافعية الكبرى، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت) ٦/١٣-٧.
- (٢٧) ذكر ابن الجوزي كل هذا متفرقا بين السنوات التي أرخ لها في المنتظم، ج ١٨، من سنة ٥٦٦ - ٥٧٤، في الصفحات من ١٩٠ - ٢٤٩.
- (٢٨) عن الحياة الفكرية والثقافية لهذه الفترة، انظر مثلاً: التل، عمر سليم: متصوفة بغداد في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، دار المأمون للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٩.
- (٢٩) ذكر ذلك في حوادث سنة ٥٧٢ هـ، في المنتظم ٢٢٦/١٨ "وزفت ابنتي رابعة ليلة الأبياء ثاني عشر المحرم إلى زوجها وكان زفافها في دار الجهة المعظمة في درب الدواب ... بعد أن جهزتها الجهة بمال كثير".
- (٣٠) ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد: رحلة ابن جبير، دار صادر، (د.ت) ص ١٩٦ - ٢٠٠.

- (١) الذهبي، شمس الدين محمد، تذكرة الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٧٧ هـ / ١٣٤٢ - ١٣٤٧. الباغي، عبد الله بن اسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في حوادث الزمان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧. ٣/ ٢٧٠ - ٣٧٢.
- (٢) إبراهيم، ناجية عبد الله، قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي، دار زهران للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٢. انظر أيضاً، إبراهيم، ناجية عبد الله، مقدمة تحقيق كتاب المصباح المضيء في خلافة المستضيء، (من ص ١٩ - ٨٠)، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت ٢٠٠٠. ص ٢٣
- (٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، الشفاء في مواعظ الملوك والخلفاء، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٧٨.
- (٤) ابن الجوزي، أبو الفرج، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ٢٠٠٠.
- (٥) السري، أحمد: الوعظ والسياسة في صدر الإسلام، مجلة التاريخ والمستقبل، ع يوليو، جامعة المنيا، كلية الآداب، مصر ٢٠٠٣. ص ٤٥ - ٤٦. انظر كذلك، السري، أحمد: الوعظ والسياسة في العصر العباسي الأول، مجلة ندوة التاريخ الإسلامي، ع ١٧، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، ٢٠٠٣. ص ٢٢٥.
- (٦) ابن الجوزي، عبد الرحمن: القصص والمذكرين، دار أمية، الرياض ١٩٨٣ م.
- (٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر بيروت، د. ت. ج ٢، ص ٣٢٠. وانظر، ابن منظور، محمد بن مكرم: مختصر تاريخ دمشق لابن عساکر، ج ٢٥، ط ١، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٩ م. ص ١٧ - ٢٠. ابن الأثير الشيباني، أبو الحسن علي بن أبي الكرم: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ج ٢، دار إحياء التراث العربي، د. ت. ص ١٦٤.
- (٨) السري، الوعظ والسياسة، ٢٠٠٣ ع يوليو، ص ٤٣ - ٤٥.
- (٩) الوعظ والسياسية في صدر الإسلام، والوعظ والسياسة في العصر العباسي الأول.
- (١٠) للمزيد عن كتابات الفكر السياسي الإسلامي، انظر مثلاً المخطوط والمطبوع من التراث السياسي الإسلامي في: عارف، محمد نصر: في مصادر التراث السياسي الإسلامي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، أمريكا، ١٩٩٤. ص ١٠٦ - ٣٣٢.
- (١١) من أمثلة على هذه الدراسات: في مصادر التراث السياسي الإسلامي، ص ٥٩ وما بعدها، عبد اللطيف كمال: في تشريح أصول الاستبداد، قراءة في نظام الآداب السلطانية، دار الطليعة بيروت ١٩٩٩. دمج، محمد أحمد: مرايا الأمراء، أو الحكمة السياسية والأخلاقية والتعاملية في الفكر الإسلامي الوسيط، مؤسسة بحسون، بيروت ١٩٩٤. الجابري، محمد عابد: العقل السياسي العربي، ط ٣، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٥، ايش، يوسف، وكوسوجي، ياسوشي (إعداد وتحقيق): قراءات في الفكر السياسي الإسلامي، دار أمواج، بيروت، ٢٠٠٠. ايش، يوسف، وكوسوجي، ياسوشي (إعداد) السلطة في الفكر السياسي الإسلامي، دار الحمراء، بيروت، ١٩٩٤. رضوان السيد في المقدمات التي كتبها للكتب المحققة ومنها الأسد والغواص، وتسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك والسياسة، والجوهر النفيس ومن الكتب الأجنبية انظر مثلاً:

Crone, Patricia, **Medieval Islamic political thought**, Edinburgh Univ. Press, 2004. Saeed Abdullah (editor), **Islamic Political thought and Governance**. 4 Volumes, Routledge publisher, London and New yourk.2011

(١٢) مقدمة كتاب المصباح، ص ٥٣ - ٥٦.

- (٤٤) ترد القصة عند الغزالي في التبر المسبوك لدعم العلاقة بين عدل السلطان وخصب الزمان، وتختلف قليلاً في التفاصيل، فبدلاً من البقرة والحلاب يتم الحديث عن عطش أنوشروان والتجائه إلى بيت لبروي عطشه، فقدم له عصير كثير من قصب قليل، وعلل بنية السلطان العادلة وقل العصير في المرة الثانية رغم كثرة القصب المعصور، وعلل ذلك بتغير نيته. وقد سمع الملك أنوشروان، وهو الموصوف بالعدل، هذا التعليل في الحالين من الصبية الياقعة التي ربطت بين نية السلطان وكثرة العصير وقلته، فأعجب بفصاحتها وتزوجها كما تختتم الرواية عند الغزالي. التبر المسبوك، ص ٦٨.
- (٤٥) الماوردي، نصيحة الملوك، ص ٣٣٧.
- (٤٦) الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد: نصيحة الملوك، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦، ينصح الماوردي الحاكم بأن "يجعل على الرعية عيوناً ممن يداخلون طبقاتهم وجواسيس يتجسسون عليهم ويتبعون أبناءهم ولاسيما في مواضع الظنة والتهمة" ص ٣٨٦، ويجعل على الولاة عيوناً من أمناء الناس وصلحائهم ليكتبوا للخليفة بسلوكهم وتصرفاتهم لاسيما ما يتعلق بظلم أو جنابة، ص ٣٤٦.
- (٤٧) ابن عقيل، أبو الوفاء علي بن عقيل البغدادي، الجنيلي، كان رأس الحنابلة ببغداد واتسعت معارفه وتعامل مع أفكار زمانه وجمع علوم الأصول والفروع وصنف فيها الكتب الكبار. انظر، المنتظم، ١٧ / ١٧٩ - كما نقل عنه ابن الجوزي في المصباح المضيء، ص ٢١٩ "الفضائل مبددة في الأشخاص، كما أن الفوائد مبددة في العقاقير".
- (٤٨) المصباح المضيء، ص ٢٥٢.
- (٤٩) المصباح المضيء، ص ٢٥٢.
- (٥٠) ابن قيم الجوزية: الطرق الحكمية في السياسة الشرعية، مطبعة المدني - القاهرة، ١٩٧٧، ص ١٧-١٩.
- (٥١) المنتظم، ١٧ / ١٧٨.
- (٥٢) المصباح المضيء، ص ٢٥٩ - ٢٧٥.
- (٥٣) الوعظ والسياسة، ع يوليو، ٢٠٠٣، والوعظ والسياسة، عدد ١٧، ٢٠٠٣.
- (٥٤) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد: الكامل في التاريخ، بيت الأفكار الدولية، الأردن، (د.ت) ص ١٧٧٣.
- (٥٥) المنتظم، ١٨ / ١٩١.
- (٥٦) الكامل في التاريخ، ص ١٧٥٤.
- (٥٧) المنتظم، ١٨ / ١٩١.
- (٥٨) الخلافة العباسية، ج ٢، ص ١٨٤.
- (٥٩) المنتظم، ١٨ / ١٩٩.
- (٦٠) المنتظم، ١٨ / ١٩٢.
- (٦١) الكامل، ص ١٧٥٤.
- (٦٢) الكامل، ص ١٧٥٤.
- (٦٣) المنتظم، ١٨ / ١٩٢.
- (٦٤) الكامل في التاريخ، ص ١٧٥٤. المنتظم، ١٨ / ١٩١ (يسرد ابن الجوزي خبر مقتل الوزير يحيى بسبب معاصرته للأحداث وبعداً عن استعداد أقوىاء عصره، بينما يفصل ابن الأثير فيها ويذكر ما لم يجروء ابن الجوزي المعاصر على ذكره، ويظهر تأمر أستاذ الدار وأمر الجند عليه لاعتقادهما بأنه كان يسعى بهما شراً عند الخليفة، وقد تبين لهما خطأ ذلك بعد قتله. الكامل في التاريخ، ص ١٧٤٥.
- (٦٥) المنتظم، ١٨ / ٢١٢-٢١٣. الكامل في التاريخ، ص ١٧٥٩.
- (٦٦) الغزافي، في الأصل نهر كبير يجري إلى الجنوب من واسط، وعلى هذا النهر كورة فيها قرى كثيرة وهي بطائع، الحموي، ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت)، ص ١٩٠/٤.
- (٣١) المصباح المضيء، ص ١٣٩.
- (٣٢) المصباح المضيء، ص ١٥٩.
- (٣٣) المصباح المضيء، ص ٢٦١.
- (٣٤) يذكر الغزالي في التبر المسبوك، "أن القليل جداً من كان من سكر سلطته صاحباً"، الغزالي، أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨، ص ٦٨.
- (٣٥) ابن الجوزي، المصباح المضيء، ص ٢٥٢.
- (٣٦) المصباح المضيء، الباب الثامن من ص ٢٠٩ - ٢٢٩. سنكتفي فيما يتعلق باستعراض الفصول بالإحالة على الفصول كما في هذا الهامش، ولن نقوم بتوثيق المقترحات المختلفة لأنها كلها تقع في الفصول المشار إليها وفي الصفحات من - إلى، وذلك بعدا عن إثقال النص بهوامش متقاربة لنفس المؤلف والكتاب.
- (٣٧) يرد هذا القول في المصادر منسوباً لأحد حكماء العرب الأحنف بن قيس، وفي صيغة أخرى لا تغير جوهر القول. فحين سأل معاوية، الأحنف بن قيس، ما الزمان؟ أجاب "الزمان أنت فإن صلحت صلح الزمان وإن فسدت فسدت الزمان" انظر، الغزالي، أبو حامد، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، ط ١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧، ص ٢٤٨.
- (٣٨) المصباح المضيء، ص ٢١١ - ٢١٢.
- (٣٩) المصباح المضيء، ص ٢٣١ - ٢٥٧، نظر تفصيل المواعظ التي سترد في المتن وسياقاتها في الباب التاسع في الصفحات المشار إليها.
- (٤٠) المصباح المضيء، ص ٢٣٥.
- (٤١) ابن السماك، وهو محمد بن صبيح المعروف بابن السماك نسبة لبيع السمك، كان رواية للحدث ورأساً في الوعظ وله فيه مجالس. له مواعظ متنوعة في السياسة والعدل وقد توفي في الكوفة سنة ١٨٣ هـ، انظر سيرته في: الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي: تاريخ بغداد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ٢٠٠١، ٣/٣٤٧، ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن: صفة الصفوة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٩، ٢/٧١ - ١١٥ - ١١٦. وانظر أيضاً، الوعظ والسياسية، ع ١٧، يوليو، ص ٢٥٥-٢٥٦..
- (٤٢) وردت هذه الفكرة عند الغزالي في التبر المسبوك فاختصرها قائلاً: "عمارة الدنيا وخرابها من الملوك"، أو "عمارة البلاد وراحة أهل وأمانهم دليل على عدل الملك" وتفنن الطرطوشي (ت. ٥٢٠ هـ) في "سراج الملوك" في وصف العلاقة الشريفة بين عدل الملك وخصب الزمان وازدهار أخلاق أهله أو انحدارها. "وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد، وتنال الزلفى إلى الله تعالى والفوز بجنة المآوى، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد وتفترق المعاصي والآثام وتورث دار البوار، وذلك أن السلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته وأقاموا الوزن بالقسط، وتعاطوا الحق فيما بينهم، ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور، وانتعشت قوانين الحق فأرسلت السماء غياثها، وأخرجت الأرض بركاتها، ونمت تجارتهم وزكت زروعهم وتناسلت أنعامهم، ودرت أرزاقهم ورخصت أسعارهم وامتلت أوعيتهم، فوأسى البخيل وأفضل الكريم، وقضيت الحقوق وأعيرت المواعين، وهدادوا فضول الأطعمة والتحف فهان الحطام لكثرة وذل بعد عزته، وتماسكت على الناس مرواتهم وانحفظت عليهم أديانهم. وبهذا تبين لك أن الوالي ماجور على ما يتعاطاه من إقامة العدل، وماجور على ما يتعاطاه الناس بسببه. الطرطوشي، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، سراج الملوك، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ص ١٨٦-١٨٧.
- (٤٣) المصباح المضيء، ص ٤٥ - ٤٦.

(٦٧) المنتظم، ٢١٥/١٨.

(٦٨) الكامل في التاريخ، ص ١٧٦٣.

(٦٩) المنتظم، ٢١٥/١٨.

(٧٠) الكامل في التاريخ، ص ١٧٦٣.

(٧١) الكامل في التاريخ، ص ١٧٦٤.

(٧٢) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٢.

(٧٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٠٢.

(٧٤) تاريخ الخلفاء، ص ٤٩٦.

(٧٥) ورد هذا بوضوح في سيرة الخليفة المقتفي بالله الذي رفض فرض مبالغ على الناس للسلطان السلجوقي بعد أن نهب دار الخلافة ولم يبق شيئاً يمكن التصرف به ودفع ثمنه وقال لمندوب السلطان "فمن أي وجه نقيم لك هذا المال وما بقي إلا أن نخرج من الدار ونسلمها. فإني عاهدت الله تعالى أن لا آخذ من المسلمين حبة واحدة ظلماً"، المنتظم، ٣٢٠/١٧.

(٧٦) الأصبهاني، عماد الدين الكاتب: خريدة القصر وجريدة العصر، القسم العراقي، الجزء الأول، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٥٥. ص ١٢.

(٧٧) انظر أخبار زهد وعلم سفيان الثوري في: تاريخ بغداد، ٢٤٤-٢١٩/١٠. صفة الصفوة، مج ٢، ص ١٠٠-٩٧. وقد اقتصر ابن الجوزي هناك على بعض أخباره فقط لأنه كما قال جمع أخباره في ثلاثين جزءاً (مفقود).

(٧٨) صفة الصفوة، ١٦٤-١٥٩/١.

(٧٩) الغزالي، أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار القلم بيروت، ١٩٩٩، ٣٥٣/٢.

(٨٠) إحياء علوم الدين، ٢٥٤-٢٥٣/٢.

(٨١) سفيان بن عيينة أحد أئمة العلم في الحجاز وكان قريباً من الحكام ولا يرى بأساً في قبول أموالهم. تاريخ بغداد، ٢٥٧-٢٤٤/١٠. صفة الصفوة، ١/١٥٨-١٥٤.

(٨٢) مرآة الجنان، ٤٢٣/١.

(٨٣) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ١٦١/١.

(٨٤) ابن الجوزي: لفظة الكبد في نصيحة الولد، دار القاسم، الرياض (د.ت). ص ١٨.

(٨٥) التبر المسبوك، ص ٨٠.

(٨٦) المصباح المضيء، ص ٥٠٠.

(٨٧) مرآة الجنان، ٣٧١/٣.

(٨٨) عبد اللطيف، كمال، في تشریح أصول الاستبدا: قراءة في نظام الآداب السلطانية. دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٩. ص ١٨٠-١٨٥.

(٨٩) شتبات، فريتر، المسلم والسلطة، مجلة الاجتهاد، ع ١٢، ١٩٩١. ص ٦٨-٧٠.

(٩٠) في تشریح أصول الاستبدا، ص ١٨٢.

(٩١) هارمان، اولريك: سلطان غشوم خير من فتنة تدوم، مجلة الاجتهاد، ع ١٣، ١٩٩١. ص ٩٥-٩٦.

(٩٢) أبو بكر، محمد فتحي، مقدمة المحقق لسراج الملوك، ص ٢٤.

(٩٣) التبر المسبوك، ص ٥٤، ٤٦، ٥٢.